السنة الأولى- العدد الأول - يوليو ٢٠٠١م

أحلام البنت الحلوة

قصص قصيرة

*قصص قصيرة لعشرة قصاصين

*مجموعة «أحلام البنت الحلوة» لحسين علي محمد

*في مرآة النقد

بسم الله الرحمن الرحيم

قصص قصيرة

تأسست في يوليو ٢٠٠١م

تصدر في: يوليو - أكتوبر - يناير - أبريل

المراسلات: ديرب نجم ــ شرقيـــة ــ مجدي محمود جعفر.

تصدر بمعاونة سلسلة «أصوات مُعاصرة»

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السلسلة

هذه سلسلة جديدة تصدر بمساعدة «أصوات معاصرة»، وتحتضنها لعدة أعداد حتى تشب على قدميها، ويتعرّف عليها القراء، والنقّاد، والحركة الأدبية.

وقد أصدرت من قبل «أصوات معاصرة» سلسلتين، استضافتهما، وقدّمت من خلالهما عدداً من الكتاب الجدد والراسخين.

*السلسلة الأولى «قصائد مصرية» التي قدمت قصائد لمحمد مهران السيد، وصابر عبد الدايم، وحسين علي محمد، وغيرهم.

*والسلسلة الثانية «سلسلة التكريم» التي كرمت من خلال الدراسة النقدية الجادة عدداً من النقاد والمبدعين، ومنهم: محمد جبريل، ووديع فلسطين، وأحمد سويلم، وأحمد فضل شبلول، ومحمد يوسف، ومصطفى النجار، ود. محمد بن عبد الرحمن الربيع، وصاحب هذه السطور وغيرهم ... وغيرهم.

أما هذه السلسلة الجديدة فستصدر ربع سنوية (في يناير وأبريل ويوليو وأكتوبر من كل عام)، مخصصة للقصة القصيرة، وستحرص على أن يضم كل كتاب:

*عشر قصص قصيرة لعشرة قصاصين، على أن تكون منـــها قصتين من قصص الروّاد.

*مجموعة قصصية لأحد الكتاب الجدد أو الراسخين.

*في مرآة النقد: ويضم نقداً يكتبه أحد الأساتذة المختصـــين للمجموعة القصصية المنشورة، أو لقصائد العدد الماضي.

وإن سلسلة «أصوات معاصرة» التي قدمت للحركة الأدبيـــة نحو سبعين كتاباً، والتي حظيت بمؤازرتكم على امتداد اثنين وعشرين عاماً ترجو منكم مؤازرتكم النقدية لهذه السلسلة القصصية الجديدة، ونرجو ألا تبخلوا علينا بتقويمكم المستمر لها، حتى تستطيع السلســلة الوليدة «قصص قصيرة» أن تقدم المفيد والنافع لحياتنا الأدبية.

والله المستعان.

عن المؤسسين

بـــدر بدير

القسم الأول

أحلام البنت الحلوة

قصص قصيرة

(الطبعة الثانية)

د. حسين علي محمد

هذه المجموعة

(الطبعة الثانية)

في عام ١٩٦٧ نشرت قصتي الأولى "أحلام البنت الحلوة" في جريدة "التعاون" التي كانت تفتح ذراعيها للأدباء الصاعدين، وكان يشرف على بابها الأدبي الروائي محمد جبريل.

ورغم انشغالي بالشعر والمسرح : إبداعا ودراسات، على امتداد ربع قرن، فقد كتبت منذ نشرت قصتي الأولى إلى الآن — أي بامتداد أربعة وثلاثين عاما — خمسا وعشرين قصة قصيرة نشرتها جميعها في "المساء"، باستثناء عدة قصص نُشرت في أماكن أخرى.

لقد اخترت من هذه القصص اثنتين وعشرين قصة، أجريت في القليل منها بعض التعديلات، وقد كان الحوار في بعضها بالعامية فأعدتُ صياغته بالفصحى.

في هذه القصص عوالم حميمة، وكتابة لها جمالياتها، ومزج بين الخاص والعام، وانتقال من وجدانية الشعر إلى اجتماعية النثر. وتوق قديم إلى اكتناه عناق الحقيقة، وإشارات إلى كثير من الأحلام المؤجلة!

د. حسين علي محمد

المســافر

لأول مرة يخرج من بيته مسافراً إلى الخليج دون أن ينظـــر في عيون أبنائه الستة، فيقولوا له:

ـــ لا إله إلا الله.

فيرد في حماس، وهو يرمق الشفقة في عيون أبنائه وزوجته:

ـــ محمد رسول الله.

قبل أن يشهق، وهو يجتاز الممر الطويل المؤدّي إلى مقعـــده في الصفوف الأخيرة في الطائرة، قال له المضيف حينما لا حظ لحيتـــــه البيضاء .. كأنه قالها مستغرباً:

ـــ هل تُدخِّن؟

ـــ لا.

وكأن عينيه استفهمت عن مغزى السؤال، فقد ركب الطائرة أكثر من ستين مرة في هذه السنوات العشر. كان يـــأتي في إجـــازة رمضان، وفي إجازة عيد الأضحى، ثم الإجازة الصيفية، وأحياناً يـأتي في زيارة سريعة تستغرق عدة أيام.

قال المضيف مبتسماً في آلية:

ـــ لأنك ستجلس في مقاعد المدخنين.

أحس بصدمة، فقد قال له طبيبه الذي يُعالجه من السكر:

ـــ احذر التدخين.

ـــ أنا لا أدخن.

ـــ لا يكفي أن تكون غير مدخن!، احـــذر مـــن مجالســة المدخنين.

أشارت المضيفة ـــ في مدخل الطائرة ـــ دون أن تتكلـــم إلى الطريق الذي سيسلكه حتى يصل إلى مقعده في مؤخرة الطائرة، وهو يقول لها (٦٥ C).

وصل مكدوداً، ووجد الركاب في مقـــاعدهم، ولاحـــظ أن بعض الركاب يدخنون.

أحس بدوار، غابت المرئيات .. قبل أن يشهق، ويخرج مـــن شفتيه زبد أبيض، ويتعاون البعض على حمله لإنزاله من الطائرة، بعد أن فشلوا في حضور طبيب معالج. واستطاعت أذنه أن تميز بعـــض الألفاظ، منها أنه من المنصورة، كما سمع من بعض العجائز "أشـــهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله" تتردّد خافتة مُشفقة!

كان منذ ثلاث ساعات قد دخل المسجد الذي اعتـــاد فيـــه صلاة الجمعة، جلس في مكانه المفضل بالصف الثالث ـــ رغم أنـــه كانت هناك أماكن خالية كثيرة في الصفين الأول والثاني، وجلس في مكان قريب من الباب حتى يكون من أوائل الخارجين من المســـجد بعد أداء الصلاة، ليجلس مع أولاده ساعة قبل أن يتوجّه للمطار.

السنة الأولى التي سافر إلى الخليج فيها ــ تلك السنة التي اشتعلت فيها حرب تحرير الكويت ــ جرّت وراءها السنة الثانية فالثالثة ... فالعاشرة.

لماذا لا تتوقف السنون عن الجري؟ كان يعد الأيام لعودته منذ وصوله:

ــ باق ١٢٠ يوماً، وأعود إلى مصر في إجازة رمضان.

ــ باق ثلاث جمع نصليها، ونعود في إجازة عيد الأضحى.

ــ باق أسبوعان في الامتحانات، ونعود إلى مصر الحبيبة.

حينما حصل على الدكتوراه ــ من الخارج ــ فشل في الحصول على وظيفة جامعية في مصر. كان يقرأ الإعلان، ويذهب سعيداً لتقديم نسخ رسالته مع الأوراق المطلوبة، وتتبخّر الآمال يوماً فيوماً، ثم يُفاجأ بأن الذي قد عُين في الوظيفة المطلوبة غيره.

قال له عميد كلية ساحلية:

ــ أنت أحسن المتقدمين للوظيفة، ولكنك تحتاج "زقة".

وحينما سأل صديقه محمد لطفي عن هذه "الزقة"، قال "دفعة للأمام يا محترم"، حتى تنال شرف التعيين في الكلية.

ــ هل يُريد ــ مثلاً ــ توصية من عضو مجلس الشعب؟

ضحك محمد لطفي واصفاً صديقه بالتخلف عن فهم آليات المجتمع المعاصر في عصر "البيزنس" وتداول النقود!!

حينما قرأ إعلان هذه الجامعة الخليجية التي يعمل فيها من عشرة أعوام قدّم أوراقه، وأجرت لجنة التعاقد مقابلة معه، وبعد عدة أيام وصلته برقية تستعجله إنهاء إجراءات السفر.

بعد أن وصل إلى الخليج، وجد أنه يتقاضى راتباً عشرة أضعاف أساتذة الجامعة في مصر، وأربعين ضعفاً لما كان يتقاضاه في وزارة التربية والتعليم قبل أن يجيء إلى الخليج، فحمد الله كثيراً.

ظل يعمل في هذه الجامعة معزيا نفسه أنه لم يجد له وظيفة أستاذ جامعي في جامعات مصر الكثيرة (لأنه لم يجد "الزقة" المطلوبة)، وأنه يعمل في جامعة عريقة لها اسمها، وأنه في الأعوام العشرة التي أمضاها بنى بيتاً يتسع له ولأبنائه، بعد أن ظل منذ تزوج يعيش في شقة صغيرة لا تتجاوز سبعين متراً، وأن زوجته تواصل الرحلة مع الأبناء بنشاط وهمة حتى التحقوا جميعاً بكليات القمة.

لكن زوجته التي ظلت معه سبعة وعشرين عاماً ماتت في هذا الصيف، وفكّر أن يبقى مع الأولاد، ويعود إلى وظيفته السابقة موجهاً بالتربية والتعليم أو مديراً لمدرسة ثانوية أو خبيراً بالكتب والمناهج، ليتابع أولاده في دراساتهم الجامعية، لكنه بعد تفكير ومُراجعة قرّر أن يذهب هذا العام إلى الخليج لآخر مرة ليُنهي بعض الأمور المتعلقة بالعمل، ويحضر كتبه وحاسوبه، ويعود إلى مصر الحبيبة، وربما يُنهي السنة الكاملة لا يقول فيها:

ـــ باق ١٢٠ يوماً، وأعود إلى مصر في إجازة رمضان.

ـــ باق ثلاث جمع نصليها، ونعود في إجازة عيد الأضحى.

ـــ باق أسبوعان في الامتحانات، ونعود إلى مصر الحبيبة.

.. وفتح عينيه بعد جهد جهيد ليجد نفسه نائما على سرير أبيض، مغطى بملاءة بيضاء، ومصل الأنبوب المعلق يتصل بوريده، وأولاده جميعا حوله يقولون في فرح حقيقي:

حمداً لله على السلامة.

الرياض ١٩٩٩/٨/٢٢

ثرثـــرة في المـــدرّج [1]

استقبلها الزحام حين خطت خطواتها الأولى داخل الجامعـــة، اتجهت يميناً فقد كانت تعرف أن هذه هي كليـــة الآداب. ســـألت واحدة من الواقفات عن المدرج (٧٨)، فأشارت بيدهـــا قائلـــة ــ كأنها تُرحب بها ــ تعالي معي!

كادت أن تُدير ظهرها، وتترك الكلية خارجـــةً إلى فضـــاء الشارع، حينما رأت عشرات من الطالبات وقليـــل مـــن الطلبـــة يتحدثون في حلقات، كل حلقة تتكون من طالب وعدة طالبـــات، ولكن استوقفها صوت أحمد ــ كأن الأرض انشقت عنه ــ:

ــ أهلا سميرة.

مالت بوجهها، كأنها تعاتبه:

ــ غبت أسبوعين، قلت أسأل عنك أنا.

أشار لها قائلا:

ــ الأستاذ غائب اليوم، تعالي نجلس ونتكلم.

قالت مذعورة:

(1) القصة الفائزة بالجائزة الثالثة في مسابقة جامعـــة القـــاهرة ــ أكتوبر ١٩٦٩. وكانت بعنوان "ثرثرة فـــي المـــدرج ٧٨"، كمـــا فـــازت بالجائزة الثالثة في المسابقة الأدبية التي نظمتها وزارة الشباب (١٩٧٧م).

ـــ أين نجلس؟ في المدرج؟!

لحقت به، وكان قد سبقها بعدة خطوات:

ـــ أقول فلنذهب معاً إلى حديقة الحيوان، أو حديقة الأورمان.

قال في صوت، اجتهد أن يحمل نبراته التي تعرفها:

ـــ فلننتظر خمس دقائق، إني أنتظر مذكرة علم الاجتماع للدكتور الخشاب، سيحضرها صديق استعارها أمس.

مشت وراءه صامتة كأنها تمشي في جنازة حبها. أشار إلى الكرسي الأخير في الصف السادس من المدرج الذي يكاد يخلو من الطلاب، وقال:

ـــ اشتقت لك يا سميرة.

قالت: لو اشتقت لنا لسألت علينا.

ـــ أمي مريضة.

ـــ ألف لا بأس عليها.

هل من الممكن أن تمرض هذه الحرباء؟. إنها هي التي حرضته على البعد عنها. قالت له ـــ كما نُقِل عنها ـــ أخوك مستشار وزوجته طبيبة، وأختك محاسبة وزوجها طيار، وأنت تتزوج واحدة تعمل على آلة كاتبة، وحاصلة على دبلوم تجارة، وأبوها محصِّل في أتوبيس الورّاق؟

قال في حزن شديد:

— مصابة بالمرارة، وحالتها متأخرة.

كادت تُزغرد، ولكنها قالت:

— لازم نزورها الليلة، ماما ستحزن إذا عرفت أنها مريضة!

هل ستحزن أُمي حقا؟!! .. لقد كانت تخدمها منذ خمس وعشرين سنة، قبل أن تتزوج أبي بعام أو عامين، وربما كانت خدمتها لها هي التي جعلتها تقف في وجه أحمد وتقول له: أنت الأول على قسم الاجتماع، وإن شاء الله ستكون دكتوراً في الجامعة، فهل تكون حماتك خادمتنا القديمة؟!

أخذ أحمد المذكرة من زميله، وتنبّه إلى وجود سميرة معه، وأنه لم يُحيِّها التحية اللائقة بها، قال لها: يمكننا أن نجلس ساعة معاً قبل المحاضرة التالية في كافتيريا الكلية، أو جزيرة الشاي في حديقة الحيوان، أو حديقة الأورمان.

أحست بحنين جارف إلى حديقة الأورمان التي شهدت بداية حبهما منذ عامين، وكيف كانت تترك المدرسة وهي في الدبلوم، وتجيء له من حيِّ الدرّاسة البعيد إلى الجيزة، ولكنها شعرت أن اللقاء محكوم بساعة واحدة، قالت:

— نبقى في المدرّج أحسن.

تركها، وبحث عن "عم حسن" عامل "بوفيه" القسم، ليحضر لهما كوبين من عصير الليمون.

*

جلس على بعد متر منها، وقال في صوت خالته كتغريد العصافير:

ــ طلبت لك عصير ليمون.

ــ كنت أفضل الشاي في هذا الجو البارد.

فاجأها:

ــ نحن في أبريل يا سميرة!!

أحست حزناً في نبرات صوته، قالت:

ــ لماذا تهرب مني؟

قال وهو لا يرفع عينيه عن الأرض:

ــ قلت لك أمي مريضة.

قالت ــ وهي تحس أنها تستدعي صوتها من بئر عميقة:

ــ ولماذا لم تهاتفني منذ فترة؟

ــ نحن مشغولون، الامتحانات على الأبواب.

نظر إلى وجهها الممتلئ بالحيرة، وقال:

ــ ولماذا لا تطلبيني أنت؟

ــ هل نسيت؟ لقد قلت لي لا تطلبيني في البيت.

— كنت أداعبك!

— بل كنت تخشى غضب أمك.

امتلأت أساريره بالشفقة على أمه، وأضاف في صوت واهن:

— أمي في لحظاتها الأخيرة. ادعي لها بالشفاء!

قالت بسرعة، كأنها تريد أن تتخلص من عبء الكلمات:

— ربنا يشفيها.

غالبت ترددها، وسألته:

— سمية صاحبتي تقول إن أمك ستخطب لك سناء أخت الطيار، التي تعمل مضيفة أرضية بمطار القاهرة.

أجاب، وهو يحاول أن يُنهي الحديث:

— هذا كلام سابق لأوانه، يشغلنا الآن: مرض أُمي، وحصولي على الليسانس!

*

لا يدري إن كانت سميرة قد غضبت حين قال لها إنه لا يُفكر الآن إلا في مرض أمه، وحصوله على الليسانس، لكنه متأكد أنها لم تشرب الليمون، وأن عصفوراً أحمر على إيشاربها كان يُحاول الطيران، ولكن الدماء كانت تسيل من جناحه المهيض!

القاهرة ١٩٦٩/٨/٥

أحـــلام البنـــت الحـــلوة

الأضواء الخافتة تتلألأ كنجوم أعياها السهر وأضناها، وهنـاك في مقهى صغير أكثر من شاب حول مائدة صغيرة متسخة يلعبـــون "الورق" .. وفي الركن صبية صغيرة نائمة. وارتفع صـــوت عـــامر الدُّكش:

ـــ بنت يا سنية!

ولّما لم يجد رداً على ندائه عاد ينادي بصوته الأجـــش مـــن جديد:

ـــ بنت يا مقصوفة الرّقبة ..

ولكن البنت لم تسمع، فقد دهمها سلطان النـــوم، وراحـــت تضطرب في سكراته .. وقامت سنية بعد أن هوى "قلـــم" علـــى صدغها، قامت تبكي، بينما الرجل الثقيل الظل يطاردهـــا بصوتـــه المُزعج:

ـــ روحي يا بنت هاتي صفيحة الجاز بسرعة من البيت!

وغمغمت سنية وهي تقول:

ـــ حاضر !!

منذ سنتين وسنية تعيش في هذه النار، نار جهنم، مع المعلـــم عامر الدُّكش، زوج أمها، البدين، ذي الصوت الأجش، والشـــارب

المقتول الذي يستطيع أن يقف على فردتيه: غُرابان!، وهي لا تدري لماذا يحبه روّاد "قهوة الناصية"، ولماذا يُطلقون عليه ألقابا لا يستحقها، مثل: "حبيب الكُل"، و"السُّكَّر"، و"الرجل الجدع". وإذا كان كما يقولون فلماذا إذن هو خشن الألفاظ، جاف الطباع مع سنية؟، وسنية بالذات؟

لقد كان أبوها "العسكري سيد" هو "السكر" بحق وحقيق، ولكنه توفي منذ ثلاث سنوات، وهي في الثانية عشرة، وكانت وقتها في الصف السادس الابتدائي .. كانت لا تعرف في المدرسة — أو الدنيا — شيئاً، وكان والدها — عسكري المرور — يعود عصر كل يوم ويداه مليئتان بالفاكهة، فتستقبله مهللة مغردة كطيور حديقة المأمور المجاورة لبيتهم الطيني المتهدِّم:

— أبي جاء .. أبي جاء ...

فيقبلها، ويرفعها بين يديه — فقد كان جسمها صغيراً بعد، ليس كجسم أمها المكتنز بالشحم واللحم — ويقول لها:

— هل تحبيني يا سنية ؟

فتضحك الصغيرة قائلة له بلثغتها المُحببة:

— مثل الدنيا كلها.

وتتحرك يدها الصغيرة نصف دائرة، قبل أن تُحَوِّطَ أباها، وتلثمُهُ.

ولكنه مات!

وتزوّجت أمها من المعلم "عامر"، ذي الأربعين عاماً، والوجه النحاسي الذي تترقرقُ عليه دائماً قطرات العرق حتى في عزِّ الشتاء!! تزوّجت أمها من المعلم "عامر الدُّكش" الذي يقسو عليها، ويُعاملها كطفلة في السادسة مع أنها عروسٌ في الخامسة عشرة.

في أول الأمر ـــ حينما تزوج عامر أمها ـــ لم يكن يقسو عليها، بل كان يرجو أم سنية:

ـــ أنا وحدي، خلّي البنت تساعدني في القهوة.

وكلما قالت له: "البنت مازالت صغيرة"، ضحك وقال متودّداً:

ـــ ماذا ستعمل؟ .. ستحمل لي صفيحة الجاز، أو تملا لي صفيحة ماء من الصنبور الذي بجانب محل المائدة .. هذه كلّ الحكاية.

ولكن الحكاية لم تقتصر على ما قاله لأمها؛ فقد صارت تفتح "قهوة الناصية"، وتكنسها، وترش الماء في الشارع أمامها، وتستقبل الزبائن الذين يأتون مبكرين ـــ قبل أن يستيقظ عامر في العاشرة صباحاً، وتظل تخدمه في القهوة وتساعده في توصيل الطلبات للزبائن حتى يؤذن العصر.

ولكنه في الأيام الأخيرة أخذ يطلب من أم سنية أن تبقى البنت معه حتى يُغلق القهوة!

وأفاقت سنية من خلجاتها بعد أن عثرت أقدامها في كرسي منكفئ على الأرض!

لطالما داعبها الشبان قائلين:

ـــ متى ستكبرين يا حلوة؟

نعم إنها جميلة، أجمل من بنت المأمور والله، ولكن "يعطي الحلق للتي بلا آذان"!!.

وتخيَّلت سنية نفسها في فستان محزّق، جميلة، رائعة، مثل "آيات" ابنة المأمور، لا .. لا، فهي أجمل منها، وأكثر من شاب يغازلها:

ـــ ما هذا الجمال يا سنية؟ .. ما شاء الله ..يا أرض احفظي ما عليك.. ما هذا الجمال كله يا بنت؟

وأفاقت سنية على صوت المعلم عامر الدكش:

ـــ لماذا تأخَّرتِ يا مقصوفة الرقبة؟ خذي هذه الصفيحة املأيها قبل أن تروّحي لأمك.

وبينما كانت سنية تملأ الصفيحة بالمياه أخذت تسأل نفسها: منذ متى لم تسمع كلمة جميلة من رواد المقهى الشبان؟ .. يوم؟ .. يومان؟ .. لا .. أربعة أيام كاملة!

وجاءها صوت "مغاوري" النقاش رقيقاً، حالماً، كأنه كـــان يعلم ما تفكر فيه، ويستجيب لما يدور في خلدها:

ـــ ما هذه الحلاوة يا سنية!. والله كبرت وبقيت عروسة!

وكاد قلبها يسقط من صدرها وهي نقترب منـــه وتســـمعه يردف في صوت دافئ مملوء بالحب:

ـــ تتزوّجيني يا بنت ..؟!

التعاون ـــ ١٩٦٧/٤/٤.

الحـــارس

بعد عناء المحاولة في هذا القيظ .. عَدلتَ عن كتابة القصيـدة، وصمّمت على أن تسهر مع أغنية أم كلثوم "أغــار مــن نسـمة الجنوبِ"!

الإذاعة مشغولة بمتابعة رحلة الرئيس السادات إلى القـدس، وأبوك مضطر إلى أن يسهر الليلة لحراسة حديد البناء بعد أن ذاعـت شائعات كثيرة عن وجود عصابات من الشباب العاطل تخصصت في سرقة مؤن البناء!

ماذا تصنع الآن؟ على فوّهة البركان جلست أنت والبنّاء (عبد الرحمن) تحرسان الغيم، وتنسجان الشباك للأحلام ..

"سناء" الحاصدة الأولى تعبر في منتصف الظـهيرة .. تتوَكّـأ على عصا، فرجلها مكسورة منذ هبوطها ـــ منذ عدة ليال ـــ سـلم بيتكم الطينيّ في أطراف القرية.

أمشي في دروب صاعدة .. رائحة الروث تمـلأ المكـان .. وسط فِخاخ سأتحرَّك .. عينا "إيمان" شقيقتي الصغرى ترانـا مـن خلف الشيش .. عيناها تعكسان سرًّا صامتاً لا تُريد أن تبوحَ به.

يسرق ''عبد الرحمن" الحديد، ويمضي، وأنت تستقبل أربـــع عيون لعصفورتين مائيتين (سناء، وإيمان). تُغادرك "إيمان" .. تُحـدِّق في عيني سناء الممتنّتين .. وتمضي.

عيونكما الأربع تتحرّك في رعب بطيء.

يُطلُّ أبوك خارجاً من باب المسجد المقابل مرتديـاً قميصـه الكتانيَّ المزهَّر بالنيلة الزرقاء. ينظر إليكما عابساً، بينمـا سـراديب الدهشة واللذة تُغلق أبوابها.

المساء ٢٠/١٢/١٩٩٧م.

ما أحلى الأيام الأولى لمجيء "سعيد". خفّــف عــني عــبء مساعدة والدي في الحقل، فأصبحت الأيام تمر بنا مثل مرور الطيف. أسحب الجاموسة إلى الحقل أحياناً، وأساعده في تحميل نقلة ســباخ فينهرني أبي:

ـــ ذاكر دروسك أحسن، إنه هو الذي يعمل لا أنت.

ـــ سعيد طيب كالأطفال، ووديع كحمل، ذو صوتٍ حــانٍ واهن كصوت أمي!

قال لي قبيل المغرب:

ـــ أحضر الفأس من كوخي.

طرقت، لم يُجب أحد. دفعت الباب، قالت لي عروسه:

ـــ ادخل!

كانت الزنبقة قد ألقت أحمالها، وتفتحت خمائلها، وانتشــر عبيرها. غمغمت لحظة، بوغتُّ، هممتُ بالخروج، فقالت:

ـــ تعال ...!

وربتت على كتفي، فشعرت بحرارة غريبة تغزو مفــاصلي! كدت أقع على الأرض وأنا شغوف باستدارالها وملاستها...

أأحمل أقدامي.. أجرجرها للخارج؟ أم أعود أدراجي لها باكياً على اللبن المسكوب؟

رذاذ الماء يرش وجهي النحيل، فأتوقف وأفكـــر في رائحـــة الغرف المغلقة!

المساء ٢٠/١٢/١٩٩٧م.

لـــــن

لن أُسميك أحمد!

ولن أجعلك قرويا تحب السواقي التي تدور في الليل لـــتروي الأرض المشتاقة إلى الري، تدور فيها الأبقار معصوبة العينـــين منـــذ عهد خوفو.

ولن أجعلك تكتب في مذكراتك أنك أحببت "هيام"، أخـــت صاحبك فوزي، واحتضنتها وسجلت في سويداء القلـــب القبلـــة الأولى!

لن أجعلك تُلقي شباكك في الليل لتصطاد القمـــر الأخضـــر والنجمات الساهرة، وفي الصباح تُغازل الشمس حتى تخفـــف مـــن نارها المحرقة وأنت تجمع الدودة من شجيرات القطـــن، أو تـــوزّع شتلات الأرز في أنحاء اللوحة المائية!

لن أرسلك مُعاراً إلى قطر لتعاقر أحزانك كل ليلة صارخـــا في دفتر أحوالك: لماذا تركت الوردة؟ ولماذا هجرت الخضراء؟

لن أجعلك مدرساً للحساب والعلوم، ولكـــني ســـأجعلك مدرساً للنصوص، وهاوياً للتاريخ والجغرافيا.

لن أذكر حكاياتك الغريبة معي كتأليبك أخواتي الأربع علـــيَّ بإغداقك عليهن، ليبدو كرمك عملاقاً في مواجهة شُحِّي وبُخلي!

لن أجعلك تموت في قطر وأنت تهاتف زوجتك في طنطا لأنها
أخبرتك أن حريقاً شبَّ في بعض بيوت قريتك!

هأنذا أرى الغيم ينعقد على جبينك، والمزالق تعبرها واحـــداً
واحداً، ولا تقع في فخاخ الصحراء، وأنت تقول لابنك الصغير:

ـــ سامحني يا "مغاوري"!

المساء ٢٠/١٢/١٩٩٧م.

يا عيني على العاشقين

(١)

.. ولأنه يقيم مع والده في مدينة السنبلاوين، ويدرس الطب في كلية الطب بمدينة المنصورة، كان عليه أن يركب القطار مرتين يومياً.

في محطة السكة الحديد بالمنصورة تعرف على "صفاء"، تسافر معه من السنبلاوين إلى المنصورة يوميا: بيضاء، ناعمة الشعر، لها خصلة شعر تتمايل على جبينها. أهم ما يميزها غمازتان في خديها، يتألقان حينما تضحك — من قلبها مُقهقهةً — أو تبتسم.

لم يبدأ الحب بينهما بالطريقة التقليدية: نظرة، فابتسامة، فموعد، فلقاء!. بل بدأ بعد نزولهما — من القطار — ذات صباح مشمس، تتردّد فيه — من قاعة التشهيلات بالمحطة — أغنية أم كلثوم المُتحدِّية: "الحب كده".

ونما الحب، وترعرع داخل قطار الصباح الذي يغادر السنبلاوين إلى المنصورة في السابعة إلا عشر دقائق.

(٢)

قالت له: أحبَّك، ونفسي أعيش معك .. بعيد .. عن الدنيا.. عن كل العيون، على رأي حليم!.

قال في صوت خفيض، حتى لا تسمع زميلتها البدينـــة، ذات الشعر الأشقر التي تتلصص عليهما منذ اكتشفت حرارة الأحـــاديث بينهما، وكانت قد حاولت أن تُنشئ علاقة مـــع طـــالب الطـــب ففشلت:

ـــ قريباً يا صفاء .. بعد سنتين أو ثلاثة .. نتزوج، ونعيش في تبات ونبات .. ويكون لنا صبيان وبنات كما تقول حكاية الشاطر حسن!.

غضبت صفاء، وحينما تغضب صفاء فإن الشـــموس تهجـــر مدارالها، والعصافيرَ تُغادر أعشاشها، والبيوت تسقط علـــى أرؤس ساكنيها. قالت:

ـــ أنت تخدعني .. ولا تحبني.

وفكّت يدها من ذراعه، ولما أبصرت الشماتة في عيني زميلتها ذات الشعر الأشقر أعادت يديها الاثنتين إلى قبضة هشام، وظلت ـــ رغم أنوف كل المتربصين والمتربصات ـــ تغني لهشـــام أغنيـــات أم كلثوم، وعبد الحليم، وليلى مراد!

لكنه كان يحب أن يسمع منها أغنيات فيروز!.

(٣)

لاحظ أبو هشام أن ابنه أصبح يتأخر عن مواعيده الـــتي درج عليها في السنوات الأربع الماضية، ولاحظ أنه يسرح دائمـــاً، ولأن

طالب الطب ينجح طوال حياته بامتياز، فقد لفتَ أبوه نظره إلى أنه يجب عليه أن يذاكر، وأنه باقٍ على الامتحان شهران .. خصوصاً أنه أصبح ينام مبكراً كل ليلة، ويقرأ روايات ألبرتو مورافيا، وإحسان عبد القدوس، وخليل حنا تادرس، كما وجد عنده بعض أعداد من مجلة "الشبكة" التي لا يحبها أبوه، مدير الوعظ .. ولفت نظره إلى أنه يجب عليه أن يخلع صور الشياطين ألفيس بريسلي .. ونجوى فؤاد .. وسعاد حسني التي أصبحت تملأ حجرته، ولا تليق بابن الواعظ الذي تعوَّد أن يُصلي الفجر مع أبيه، وهو في السابعة.

(٤)

٥ مارس ١٩٧٠ ليلة الجمعة:

أم كلثوم تُغني أغنيتها الجديدة "ودارت الأيام"، الولد مع البنت يستمعان إلى الأغنية في بيت البنت التي تشجعها أمها على الحب، لتجربة مريرة خاضتها في حب مُحامٍ من جيرانها لم تُكلل بالظفر، بل آبت بالزواج من المرحوم أبي صفاء الذي كان يعمل أميناً للشونة في قرية صغيرة، ويقترب عمره ــ رحمه الله وأحسن في الجنة مثواه ــ من ثلاثة أضعاف عمرها!

هشام وصفاء يستمعان في حجرة عتيقة إلى الأغنية التي جاءت على وجيعتهما برداً وسلاماً، يتشنجان وأم كلثوم تُردِّد: عيني .. يا عيني .. يا عيني!..

وبعد أن انتهت الوصلة قالت له إن هناك من أتـــى لطلـــب يدها، ولكنها ترفض لأنها مرتبطة بحبيب الـــروح هشـــام، الـــذي سيكون طبيباً قد الدنيا، وإن عليك إن كنت تحبني حقا يا هشـــام أن تُحضر أباك الواعظ ليتقدّم إلى أُمي لطلب يدي، وأنت تعـــرف أن أمي تحبك، وتُبارك هذا الحب، وسترحّب بقدوم أبيك!

(٥)

ويعود الابن، حيث يسأله الأب: أين كنت حتى هذا الوقـــت المتأخر من الليل؟ ولكنه لم يُجب، ويدخل إلى حجرته، وتدخل أمـــه وراءه، وتقول له:

ـــ يا بني أبوك يلومني كثيراً بسببك ..يقول لي: أنت الســـبب .. أنت اللي دلّعت هشام .. وفتّحت عينيه، وكنت تقولين له دائمـــاً تتجوز بنت خالك علي أم بنت عمك عبد المقصود؟

ولكن الابن لا يرد. وتعود الأم في ضراعة:

ـــ يا ابني .. مستقبلك يا حبيبي!

ويظل صامتاً.

(٦)

في اليوم التالي (٦ مارس)، وكان يوم جمعة، وفيـــه ســـاعة إجابة، قال الولد لأبيه في خجل شديد إنه يريد أن يتزوج، قال لـــه والده كيف تتزوج قبل أُختيك اللتين تخرجتا مـــن كليـــة الآداب،

وأخيك المُهندس؟ قال هشام ــ وهو لا يكاد يرفع وجهه عن الأرض ــ على الأقل أخطب!

قال أبوه في غضب:

ــ ماذا تقول؟

ــ أقول أخطبها بس .. يعني أحجزها.

قال أبوه غاضباً:

ــ إنك مراهق، لا تعرف مستقبلك!

قال هشام، وكأنه يصرخ بكل ما أُوتي من قوة: إنها مستقبلي.

فرد أبوه بعنف:

ــ لست ابني .. الله يعوِّض عليّ فيك.

ولم يكتف بهذا بل بصق ــ وهو يدير وجهه ــ بصقة كبيرة، وخلع فردة حذائه اليسرى وهوى بها في عنف ــ مرات كثيرة ــ فوق وجه زوجته التي لم تُحسن تربية هشام!!

أخذ الولد يبكي، وبعد قليلٍ غادر الولد الشقة ــ التي غادرتها بعد قليل أمه، وهي تسدل طرحةً كثيفةً سوداء على وجهها ــ وأمام بيت صفاء التقت عينا هشام الدامعتان، بعيني أمه المقرحتين، وارتفعت من خلف الباب زغرودة آملة .. مستبشرة.

المساء ــ ١٣/٤/١٩٧٠

الزواج في عربة الدرجة الثالثة

كنت في طريقي من الزقازيق إلى القاهرة في عربة قطار الدرجة الثالثة، وجلس بجواري معيدان بجامعة الزقازيق، أحسست بالزهو، فلست وحدي من يركب قطار الدرجة الثالثة.

قدّم لي أحدهما سيجارة:

ـــ تفضَّل.

شكرته، فأنا لا أُدخِّن.

ـــ نحن مازلنا في الزقازيق، والطريق طويل، فلابد أن تدخن معنا.

قال الثاني متبسطاً:

ـــ أنت تعرف الكرم الشرقاوي .. يعني .. لازم تدخن!

فكرّرت اعتذاري.

القطار يتحرّك، جلست بجواري فتاة يبدو أنها طالبة بالجامعة، تضع حقيبتها على ركبتيها وتجتهد أن تُخفي بها ما ظهر من ركبتيها الممتلئتين.

سألها المعيد ذو الشارب الكث:

ـــ هل تعملين في الزقازيق؟

أجابت في اقتضاب:

ـــ أنا مازلتُ طالبة.

ـــ في أية كلية؟

ـــ في كلية التجارة.

وأخرجت مجلة نسائية، مليئة بالصور الملونة، وأخذت تُحـدِّق في صفحات الموضة.

*

المعيدان ينتقلان من حديث إلى حديث.

قال أحدثهما سنا:

ـــ أريد أن أتزوج! .. أفكر فيه.

قال الآخر ذو الشارب الكث:

ـــ تزوّج .. هل يمنعك أحد؟!

يبدو المعيد الآخر أصغر منه بعدة سنوات. أضاف:

ـــ ضع يدك في جيبك، وأخرج ما فيه، وتزوّج!

قال المعيد الصغير، الضعيف، منتفضاً كعصفور بلّله القطر:

ـــ الجيب ليس فيه شيء! .. أما ترى ما نصرفه كل يوم؟ أنـا أصرف حوالي أربعين قرشاً في اليوم .. مصاريف فقط! والـــزواج يطلب كيس نقود!

أغلقت البنت المجلة، وأخذت تُتابع الحديث:

سألتها:

ـــ أنت في أية سنة؟

ـــ السنة الثانية.

ـــ من القاهرة؟

ـــ لا .. من بلبيس؟

ـــ ما مهنة والدك؟

ـــ تاجر أخشاب.

قال المعيد النحيف مشتركاً في حوارنا:

ـــ هل أنتِ بنت الحاج محمد عوض الله؟

ـــ نعم.

وهزت رأسها متسائلة في تشوق:

ـــ حضرتك تعرفه؟

قال مقلداً صوت نجيب الريحاني، وكاشفاً عن قدرة تمثيلية باهرة:

ـــ ومن في بلبيس لا يعرف الحاج محمد عوض الله؟!

*

يعود حديث المعيدين إلى انطلاقته، يقول المعيد الضعيف:

ـــ العيشة غالية صحيح، لكن لازم الواحد يتزوج، ماذا نعمل؟

وينظر إلى البنت التي تضحك في عبها، ويقـــول نـــاظراً إلى عينيها العسليتين، ووجهها المدوّر كالقمر:

ـــ والله لولا أمي ما كنت أقدر أعيش، أســتلف منـــها يـــا حسرة، حتى بعد أن توظفت، فـــ .. قل لي يا بك كيف نـــتزوج؟ وهل تعمل السبعة عشر جنيهاً شيئاً؟

قال البدين:

ـــ طيب .. مادمت تعرف ذلك .. انتظر الفلوس اللي تعمــل شيئاً .. كلها خمس سنين وتكون خلصت الماجستير والدكتوراه!

وينظر المعيد النحيف أبو سوالف لبنت الحاج محمد عـــــوض الله، ويقول:

ـــ أو أنتظر لمّا أجيب مرسيدس مثل الدكاترة أساتذتنا، ما من أحد غيرنا أنا وأنت يركب الأتوبيس ١١ .

يضحك البدين، ويُخاطبني:

ـــ يقصد أنه يمشي ..يركب رجليه، (ويضحك) وأنا مثله!.

ويسأل النحيف:

ـــ ما اسم الكريمة بلدياتنا؟

ـــ فاتن ..

ـــ المشكلة يا فاتن ليست مشكلة عربية مرسيدس، المشـــكلة أن مظهرنا يتطلّب منا ما يفوق السبعة عشر جنيهاً التي نقبضـــها ..

المجتمع ينظر لنا نظرة ثانية .. إننا أساتذة جامعة، مظـــهرنا يتطلـــب فلوساً، والمراجع والكتب الضرورية بالنسبة لنا تحتاج إلى فلوس ..

وتهز فاتن رأسها، ويرد عليه البدين:

ــ كلامك مضبوط.

*

تدخل فاتن المجلة النسائية في حقيبتها .. تنشـــغل بصحيفـــة استعارتها من راكب أمامنا، يتوجه النحيل للبدين:

ــ الذي أنا أستغربه .. كيف تزوجت؟

ــ أنا متزوج وأنا طالب.

ــ طيب.. أنت محظوظ ياعم، لكن هل يكفيك مرتبك؟

ــ لا .. أنا أعطي لطلاب الثانوية العامة دروساً في الكيميـــاء والأحياء.

ــ جميل .. حل جميل .. بدل أن يجلـــس الواحـــد منـــا في المقهى، يعطي دروساً لطلاب الإعدادية، والثانوية العامـــة. (وهـــز رأسه، وهو يضيف) فكرة جميلة .. والله!

أكمل البدين:

ــ ثم أنا ساكن في شقة بثلاثة جنيه ونصف في حي الســـيدة زينب.

ــ معقول؟!

— نعم معقول .. بيرم التونسي كان يكسب مئات الجنيهات من أزجاله وأغانيه، وكان يسكن في سطوح الناصرية.

— متزوج زميلة لك؟

يبدو أن البدين لم يسمع، فأعاد عليه السؤال مبتسماً:

— لا مؤاخذة يا دكتور صلاح، زوجتك موظفة ولاّ ست بيت؟

— ست بيت .. هذا أوفر وأحسن .. لما أرجع من الشغل وأجد الأكل ساخنا أحسن من أن أرجع متعباً وأعمل الأكل لنفسي! ..

كانت معالم بلبيس قد اتضحت في الأفق، وبدأ القطار يُقلّل من سرعته. ونهضت فاتن متجهة إلى باب القطار قائلة في صوت خفيض:

— السلام عليكم.

وقال صلاح لزميله النحيف:

— ولماذا تبحث عن عروس وفاتن موجودة؟، ربنا أرسل لك العروسة لغاية عندك، بنت ناس مبسوطين، وعارف أصلهم وفصلهم، ولما تتخرّج تكون حصلت على الماجستير. مع السلامة يا درش.

ابتسم مصطفى، وأشرقت عيناه في بهجة، وكاد يقع على الأرض، فقد توقف قطار الدرجة الثالثة فجأة أمام رصيف المحطة. أخذ يشد على أيدينا، وهو يقول بكرم شرقاوي، تفضلوا معنا.. تفضلوا.

ناداه صلاح:

ـــ مصطفى .. ماذا قلت في العروسة؟

ـــ قل يا رب.

كان القطار قد توقف نهائياً في المحطة، ورأيت فاتن ومصطفى يسيران معاً، يتحدثان، ويبتسمان. وعندما أصبحا قبالتنا، نظرا إلينا مُحييْن، وأخرج صلاح كتاباً ضخماً باللغة الإنجليزية ليقرأ فيه، وقبل أن يبدأ القراءة بادهني قائلا:

ـــ أترى أن السنارة قد غَمَزَتْ؟!

المساء ـــ ١٩٧٠/٤/١٠

كانت فرحة "شفيق" مقطوعة الذراع، لم تطُلْ، فهذا الصبـاح كمْ ترقّب مجيئه، وكم كان يود أن يكون جميلاً، ولكنه جاء ـــ ويـا للأسف ـــ وشمسُه غائبة خلف أسراب من الغيوم التي تزاحمـــت في الأفق البعيد.

وبحنين ولوعة ضمّ "شفيق" العددين اللذين ابتاعـــهما مـــن الجريدة إلى صدره وفي قلبه حسرة، والطريق أمامه طويل .. طويـــل .. لا يعرف أين ينتهي، بل لعله لم يبصر بدايته بعد!

إلى أين يذهب؟ أيذهب إلى دار الجريدة؟ ولو ذهب! مــــاذا يقول لسيادة الناقد الكبير الدكتور مُحرر الملحق الأدبي الذي أتحفـــه بالأمس القريب بكلامه المعسول، وقال له: أنت واحدٌ من أفضـــل كتاب القصة القصيرة الآن؟!

قال لنفسه: فلتسكت، وليقدر الله ما شاء، فسيادة الدكتـــور مثلك الأعلى، ولربما جاءت عفواً، وسيتداركها في قابل الأيـــام، ولا تكسب عداوة أحد وأنت في أول الطريق!

التقى "شفيق" بمثله الأعلى (سيادة الدكتور: النـــاقد دائمـــاً، القاص أحياناً)، في مكتبه بالجريدة، وبعد أن أخبره شفيق بتحليـــق الملحق، ونشره لروايات وإبداعات متميزة لجيل الرواد بلع ريقـــه،

وأخبر الدكتور أنه يكتب القصة القصيرة، وأن لـــه فيــها بعــض التجارب. ثم تشجع وقال: وقد أحضرت لك قصة تتحـــدث عـــن تجربة غريبة .. تجربة لقاء حبيبين بعد افتراقٍ طال عشرين عاما.

كان "شفيق" يتحدث بصدق، فهو لا يعرف النفاق، ولابـــد أن حرارة كلماته وصلت إلى شِغاف قلب الكاتب الكبير (المحـــــرر الأدبي للجريدة، والأستاذ بالجامعة، والقاص أحياناً) فطلب كـــوب شاي لشفيق، وطلب منه أن يقرأ قصته.

وقرأ "شفيق" القصة وهو يرجو أن تكون مولوده الأول علـى صفحات الجريدة.

ابتسم الناقد الكبير وهو يقول لشفيق:

ـــ بداية رائعة، فيها صدق في المُعالجة، وممتازة حقا، لابـد أن تنشر في العدد الأسبوعي المقبل يوم الثلاثاء، فتشجيع الموهوبين مـــن أمثالك مهمتنا، واكتشاف أديب متميز لا يقل عن اكتشـــاف بـــئر بترول!

وبلع الناقد الكبير ريقه، وهو يقول في مودة حقيقية:

ـــ بداية رائعة يا شفيق!

قال شفيق في تواضع جم:

ـــ إنها ليست بداية يا أستاذي؛ فأنا أُعالج كتابة القصة منذ وقت طويل، ولكن الظروف حجبت إنتاجي عن النشر! لعل أهمها بُعدي عن العاصمة!

وأخبر الأستاذَ أنه كان يفوزُ بالجائزة الأولى لمسابقة القصة القصيرة على مستوى جامعة القاهرة أيام أن كان طالباً في كلية الهندسة، ولكنه لم يحاول أن يتصل ـــ من قبل ـــ بأية صحيفة أو مجلة أدبية.

ومرت اللحظات بعد ذلك سريعة، تكلما فيها عن كُتب الأستاذ التي قرأها شفيق من قبل، وناقش قضاياها مع مؤلفها، فقد كان يريد أن يختلف معه حول مفهومه عن الفن للفن، وكان شفيق يرى أن الفنان الحقيقي لابد أن يكون ملتزماً.

خرج شفيق مسروراً، فغداً تنشر القصة في عدد الجريدة الأسبوعي الذي يوزع مئات الآلاف، ويكون اسمه مكتوباً بالبنط الأسود الكبير تحت "قصة العدد": اللقاء الأخير: شفيق مصباح! يالها من فرحة، ويالها من شُهرة كبيرة تهبط عليك يا شفيق فجأة وأنت في السابعة والثلاثين!

أين كنت يا حظي العاثر الذي ألقيتني مهندساً صغيراً في مجلس مدينة الزقازيق؟ فلتبتسم في وجهي مرة واحدة، ثم لتظل باسِماً إلى الأبد! فعندما تُنشر القصة الأولى في أكبر جريدة ستعجب

الكتاب الكبار، وستصبح حديث المحافل الأدبية في القاهرة العجـــوز ـــ التي يحسنُ كتابها الدعاية ولا يُحسنون الإبـــداع! ـــ لأســـابيع طويلة. فالناقد الكبير أعجب بها! هل سمعته وهو يقول إنها ممتـــازة، وستنشر في العدد التالي؟. سيكتب النقاد عنها بـــالطبع، وســـأبلغ القمة، وذلك الناقد الثرثار الذي يتكلم في الصحف كثيراً عن مـــوت القصة القصيرة سيتراجع عن دعواه لأن قصتي ستخرج لســـانها لــــه قائلة: القصة القصيرة لم تُمتْ يا أستاذ!، فيُعيد كاتبا شهادة ميلاد لهذا الفن المراوغ عل يديّ. ستحتل صورتي مكانها ـــ الذي ينبغـــي أن تكون فيه ـــ في الصفحات الأدبية، وســـوف يســـتدعيني رئيـــس التحرير طالبًا مني قصصي الأُخرى، وستمنحني الجريدة مكافـــأة لا تقل عن عشرين جنيهاً أي أكبر من نصف مرتبي الذي آخذه عـــن شهر كامل من الخطط والرسوم والاجتماعات والصراخ والفكاهات الماسخة من رئيس مجلس المدينة، وحل الكلمات المتقاطعة.

ربما تعجب قصتي أحد المخرجين فيُحولها إلى مسلسل في هـذا الساحر الجديد (التليفزيون)، يشاهدُه الملايين.أو ربمـــا تتحـــول إلى (فيلم) يعطوني آلاف الجنيهات ثمناً لقصته، وليت مُعـــد الســـيناريو والحوار يلتزم بالقصة ففيها كل عوامل النجاح.

على أي حال لا مجال للعودة إلى منطقة الظل التي عشت فيها سبعةً وثلاثين عاماً!، ولن يسخر مني زملائي المهندسون في مجلـــس

المدينة حين أقول لهم: إني كاتبٌ للقصة، وسيقبلون نقـــدي الـــذي أمحضهم إياه ـــ لوجه الله ـــ عن مسلسلات التليفزيون التافهة! ولـن يسخروا من مقدرتي النقدية حين أقول لهم: يجــب علــى كتــاب المسلسلات عدم المبالغة في الأحداث، والـــتزام الواقعيـــة في رســـم الأشخاص.

لا أيها الزملاء إن قصصي ليست علـــى مســـتوى النشـــر فحسب، ولكنها ممتازة. هكذا قال لي الدكتور محرر صحة الأدب في أكثر الجرائد شعبية وانتشاراً.

وعاد شفيق، وهو يمني نفسه بأحلى الأمنيات، ويقول لزوجته التي تهوى القصص التافهة لكتاب غير مشهورين يعتمـــدون علـــى صفحات الأحداث في الصحف، ليكتبوا قصصهم الفاجعة في تلـــك المجلة النسائية العجوز التي تكاد تحفظ ما يُنشر فيها من قصـــص، ولا تلتفت لأقاصيصه التي تملأ ثلاثة كشاكيل ضخمة!:

ـــ غداً ستقرأين قصتي، ومع نشرها ينتهي اتهامك لي بعـــدم القدرة على كتابة القصة الناجحة.

وقال في نفسه: فلينتهِ هذا اليوم الذي أضع فيه حدًّا لعزلـــتي، وليجئ الغد، ومع مجيئه .. يسطع نجمي، وتُلعلع أفراحي وشهرتي إلى الأبد!

نام ليلةً جميلة مليئة بالأحلام، قام قبل الفجر، ربما لأول مـــرة يُصلي الفجر جماعة ويشعر بنشوةٍ غريبة لم يألفها من قبل! وكـــان عليه أن يتجه "لعم مصطفى" الذي يبيع الصحف أمام محطة القطـار. لم يجد أحداً غير بعض الجنود الذين تبدو علـــى محيَّـاهم اللهفـة والانتظار. لعلهم في انتظار سيارات الأجرة للتوجُّه إلى القاهرة.

كان عليه أن ينتظر بضع دقائق ثقيلة الخطى، قبل أن يصيبـــه اليأس من مجيء "عم مصطفى"، عليه إذن أن يتجه لبـــائع صحـــف نشِط، ليشتري عددين من الجريدة التي ســـتحمل ابنتـــه الأولى إلى القرّاء.

ابتاع عددين.

فتح الصفحة، وانفرجت أساريره.

يا لشهرتك التي ستملأ الآفاق يا شفيق. ها هي قصتك. هـــا هي قصتك، ها هو عنوانها "اللقاء الأخير"، ... وفجأة ..

وكأنما صُبَّ عليه "طست ماء بارد في زمهرير طوبة"! لقـــد بحث عن الاسم فلم يجده؟ كيف حدث هذا؟ .. قصتي بدون اسمـــي .. ابنتي لقيطة؟ ماذا سيقول لزوجته؟ ماذا سيقول لأصدقائه الذيـــن أخبرهم بأن الجريدة ستنشر له قصة في نفس المكان الذي تنشر فيـــه لتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ؟ لماذا رفض أن يقرأ لهم القصة وآثر أن يقرأوها هم صباح الثلاثاء؟

أيقول لهم إنها قصته؟ وهل سيُصدقونه؟ هل يقـــول لهـم : انتظروا الأسبوع المقبل حتى تستدرك الجريدة سهوها، وتنشر تحـت "سقط سهوا": كانت قصة "اللقاء الأخير" المنشورة في عدد الثلاثـاء الماضي للقاص شفيق مصباح".

أيقول لهم إنها قصته؟ وكيف يُصدقونه اليوم؟!

من الأفضل ألا يذهب لمجلس المدينة اليـوم، يـأخذ إجـازة عارضة! هل من الممكن أن يعتذر عن الاجتماع الشهري لرؤســاء القطاعات؟

هاهو رئيس مجلس المدينة يرفض الاعتذار، ويتخلى عن صوته الودود، ويكاد يصرخ في الهاتف:

ـــ يا رجل، أمن أجل وعكة صحية بسيطة تعتذر عن حضور اجتماع يُشرِّفُنا فيه السيد الوزير المُحافظ؟

لا .. لن أذهب، ستلسع النكات أُنيٍّ من جديد: فـــها هــو الطبل الأجوف، لم تُنشر قصَّته.

ومسح دمعته، مغلقا باب شقته، الحمد لله .. مازالت زوجـه نائمة، ونزل الدرج يبحث عن معالم الطريق الذي لا تبدو له بداية!

المساء ـــ ٢٠/٤/١٩٧٠م.

حكايـــة هنادي

ضحك الكهل سائق السيارة "البيجو"، وهو يخبرني أن هنادي تزوجت، وأن عليه أن يسرع حتى يلحق وليمة عقد القران.

كنا بعد صلاة الظهر بقليل، وكنت في طريقي عـــائدا مـــن المطار إلى القرية في رحلة سريعة من السعودية حيث أعمل محاسبا في شركة كبيرة للمقاولات بالرياض. أصرّ الكفيل أن أعود في خمســـة عشر يوما.

قال الكهل:

ـــ أهذه أول زيارة لك بعد العمل في الرياض؟

ـــ لم أسافر إلا من خمسة أشهر فقط!

ساد الصمت بيننا، فقطعه بصوت مباغت:

ـــ هل تعرف هنادي؟

ـــ ومن لا يعرفها؟!

ـــ إنها تعمل محاسبة في الإدارة البيطرية!

ـــ أعرف.

ـــ مسكينة! ماتت أمها، ومات أبوها، وكانت مقطوعةً مـــن شجرة رغم أنها ذات عشرة أخوة يسدون عين الشمس، منهم وكيل

النيابة، والمهندس، ومحصل الأتوبيس، وسارق كيزان الذرة ليشتري علبة سجائر من دكان الحاج "محمود المنيسي"!

كنا في الصف الثالث الثانوي، وكانت مصر تخوض حرب ١٩٦٧ حينما دخلت عليّ صارخة:

ـــ أخي شوقي يريد أن يزوجني من "عبد الفتاح بك"؟

نظرت بفجيعة لها!

كان أخوها الذي حصل على ليسانس الحقوق قبل عام، وأجبره أبوه على أن يطلّق الأرملة التي تزوجها في القاهرة ـــ والتي قيل إن عمرها في عمر المرحومة والدته، وإن لها أولادها بشوارب يقف عليها الصقور ـــ قيل إن هذا الأخ المحروس، يريد أن يزوجها لتاجر الأقطان، وعضو مجلس الشعب الأرمل ذي الستين عاما حتى يسعى لتعيينه وكيلا للنيابة!

كانت زوجة أبيها البيضاء، الجميلة، ذات الشعر الأصفر الطويل تدّعي عليها أقاويل كثيرة: فقد جعلتها في حكاياها تُضبط مع محمود المخزنجي في القصب، وتسرق "جَمْعة البامية" وتبيعها لتهديها للولد محسن السرسي ـــ زميلها القديم في مدرسة التجارة والذي رسب ثلاثة أعوام في الدبلوم ـــ وادّعت الجميلة، البيضاء، ذات الشعر الأصفر ـــ أن هنادي سرقت ملابس المحروسة لتعطيها

لخالتها "فاطمة" التي تربي أولادها اليتامى من الخدمة في البيوت، والسحت، والتعديد على الميتين، وسرقة الحقول التي تنام نواطيرها!

كنا هناك عند السنطة العجوز نلعب، وكنت أصنع أفراسا من الطين، بينما كانت "هنادي" تعمل عروسا لها ضفيرتان طويلتان وكراسة صغيرة وقلما رفيعا من البوص تجتهد أن تلصقه فوق كتلة الطين.

كنت أعمل للفرس عُرفا، وكانت تصنع للعروس نهدين صغيرين يترل منهما اللبن شهيا كما لم أذقه من قبل من "بز" جاموستنا العفية!

سكت الكهل متعبا، وجدني أُغمضُ عينيَّ، وأنام، وصوت "أم كلثوم" الأثير من إذاعة القاهرة يُردد أغنية "سيرة الحب" التي أحتفظ لها ــ مع وطفاء، أين هي الآن؟ ــ بأجمل الذكريات!

كنت ألعب مع هنادي، جارتنا، بعد الخروج من المدرس عصرا، ولا أذهب للبيت للنوم إلا بعد أن تنام.

كانت قطة بيضاء صغيرة، وأنا كنت أحب القطط والكلاب الصغيرة، وأجعلها تنام في أحضاني!

في الصباحية ذهبت إلى "هنادي"، لأعطيها النقطة عشرة جنيهات، قالت لي ــ وبقايا لون أحمر رخيص على شفتيها الباهتتين ــ:

ـــ أما زلت تذكر أفراس الطين؟

كنت الأول دائما، وكانت بين بين!

جاءتني مذعورة حينما علمت أن "وطفاء" ـــ ابنة ضـــابط النقطة الذي يعمل الجميع له حسابا ـــ تهتم بي في الدرس، وتريـــد إغوائي، وأهدتني منديلا أحمر، وأنا خارج من المسجد بعد صـــلاة التراويح!

قلت لهنادي (من وراء قلبي، فأنا لا أحـــب أن تزعـــل): أخاف من بنات الضباط، فأنا فلاح أهـــوى القطـــط البيضـــاء، والكلاب السوداء الصغيرة، وأحضان أمي! وأخاف من المـــرور على نقطة الشرطة التي تمتلئ بالعفاريت!

بكت "هنادي"، فقد ماتت أمها صغيرة، وزوجة أبيـــها ذات الشعر الأصفر الطويل الذي يغطي فخذيها ليس في أحضانها مكان متسع لهنادي، فهي تنجب كل تسعة شهور ثلاثة أولاد!

قلت، وأنا أتطلع إلى ذلك الزمن الجميل البعيد:

ـــ أمي مريضة يا هنادي، وقد جئت من السعودية لأراهـــا، والحمد لله أن حصلتها ...

ـــ وكيف حالها الآن؟

ـــ متأخرة .. لم تعرفني .. ربنا يسهل عليها!

قالت لي: إن عرائسها ــ من الطين والحلوى ــ في الشباك تنتظر أفراسي لتُزفَّ عليها!

صمتُّ، فقد كنت ذا حلم كبير؛ أن أحصل على الدكتوراه في المحاسبة! وأن أتزوّج "وطفاء" بنت المأمور، وأن أسكن المدينة، وأترك الريف الذي يمتلئ بالذباب والبعوض والحفاء!.

قالت لي: إنها ستشوه وجهها بالنار إذا اقترب منها أحد غيري، وستشوّه وجه "وطفاء" إذا اقتربتُ منها، لكنها لم تجرؤ على تهديدي بسكين أو خلافه، ولم تصرخ في وجهي!.

كانت تهدّد كأنها تحلم!

كنت بدأت أترك الشعر والأحلام، وأبحر في قارب الأرقام، فتخليت عن الوردة البيضاء ذات دبلوم التجارة، وحلمت بفاتنات ــ منهن "وطفاء" ــ يسكن في قصور المدينة الكبيرة، ويركبن السيارات التي لم تدخل قريتنا أبدا، ووجوههن بيضاء مربربة، وخدودهن حمراء كورود حديقة صديقي منصور، أو كبيض شم النسيم، وصدورهن صغيرة كحبات البرتقال اليوسفي، ليست كصدور بعضهن المنتفخة العارية على أغلفة المجلات الخليعة!

سمعت ذات مساء زغاريد خطبة "هنادي" إلى "عبدالفتاح بك"، عضو مجلس الشعب، وقابلتهما في ميدان "رمسيس" بالقاهرة يتجاذبان الحديث الضاحك، في ود حقيقي!

وذات صباح، لا أدري لونه، مات عضو مجلس الشعب (عبد الفتاح بك) بعد أن صار أخو هنادي وكيلا للنيابة، وارتدت "هنادي" السواد، وأضربت عن الزواج!

لمحت دموعا سوداء تلمع في عينيها، لكنها أدارت وجهها لتمسحها، وغيرت مجرى الحديث:

ــ وهل ستعود ثانيةً إلى السعودية؟

ــ العمل يحتاجني.

شهقت:

ــ وأحضان أمك؟

لم أجب، فقالت بود ووجهها يمتلئ بمساحات للفرح:

ــ أما زلت تذكر الأفراس الطينية، وأشجار السنط، والاستحمام في الترعة، وقططك وكلابك الصغيرة؟!

كانت آخر أضواء الصباح تنسحب من الغرفة، وكنت أمسح دمعة كبيرة من العين:

ــ ذلك كان زمان اللعب، والدروس، والسنطة العجوز ... يا هنادي! .. ذهب وأخلى مكانه للحزن والبعاد!

توقف الكلام بيننا، فقد سمعت اللغط في بيتنا المجاور، وصراخ شقيقاتي اللائي جئن من القاهرة يبكين أمي التي لن أراها مرة ثانية!

الرياض ١٩٩٧/١٢/٢٣

انتـــــظار

أشرقت الشمس بنورها الفضي، وملأت القرية دفئاً وبهجـــة، وفرحاً واستبشاراً . وتدفقت جموع القرية على محطة السكة الحديـد في انتظار القطار الذي سيحمل إليهم الجنود العائدين من الحـــرب في اليمن ، فقد ذهبوا إلى اليمن الشقيق لمؤازرته ، و"لإنقاذه من جـــهل العصور الوسطى ، وحكم أسرة حميد الدين" ، وهاهم اليوم يعودون بعد أن سجل التاريخ بطولاتهم "بحروف من نور في صفحات مـــــن ذهب" .

وبدأ القطار يظهر في الأفق ، واتضحت معالمه شيئاً فشـيئا .. هاهو القطار الذي يحمل حُماة الحرية .. وناصري الحق !

وتوقف القطار وانطلقت الزغاريد ..

وكانت هناك ــ بجوار المحطة ــ خالتي "مباركة" ، وهـــــي امرأة صغيرة الحجم ، عيناها غائرتان باهتتان ، خاصمتا الكحل مـــن وقت طويل .

مشت بجاموستها الهزيلة إلى الحقل الذي تتأجر منـــه ثلاثـــة قراريط، ووضعت أمامها وأمام جديين صغيرين شـــقيين حزمتـــين صغيرتين من البرسيم.

كانت تعانق الخيال، وتتمنى أن ترى ابنها هو الآخر، وتبحث عنه بين جموع العائدين الذين شُغلوا عنها بالفرحة والزغاريد ودموع اللقاء.

قالوا لها — منذ شهرين — إن ابنك مات.

ابني قد استشهد.

جاءت إلى المحطة تنتظر، إنها تعرف أن ابنها في زمرة الأحياء، سيبقى خالداً في سجل الخلود.

الأمهات فرحات بأبنائهن العائدين، والأبطال تبدو عليهم فرحة غامرة (كأنهم لا يصدقون أنهم عادوا إلى أرض الوطن). ابنها أيضاً "بطل".. وهي التي صنعت هذا البطل ..ابنها الذي استشهد في جبال بعيدة .. وفي أرض غريبة .

مات أبوه وهو مازال في بطنها ، كانت ابنة أربعة وعشرين عاما، مات لها ثلاثة أولاد وبنتان قبله .. ترملت من أجله، وحتى يتربى أحسن تربية رفضت أن تتزوّج. صحيح أنها ليست جميلة، ولكن جاء لها أرملان يعرضان عليها الزواج : محمد أبو سليم، وصابر الملاّحي.

بطل؟ إنها هي التي صنعت هذا البطل .. تاهت الكلمات، وارتطمت بمخيلتها .. وهي ترى كل أم تعانق ابنها. ليته يعود ليقوم

بشأن الجاموسة والجديين والقراريط الثلاثة، لم أعد أتحمَّل يا محمـــود .. فهل عدت معهم؟

الزغاريد انطلقت تشق أجواز الفضاء .

حاولت أن تُزغرد ، أن تفرح مثل النـــاس . ولكـــن ابنـــها "محموداً" الشهيد الغائب كان قد ملك عليها روحها.

انفضت جموع القرية ، نزلت من الرصيف إلى حقلها المجـــاور ، كانت الجاموسة تحرك ذيلها بشدة تبعد عنها ذبابة كبيرة ســـوداء تضايقها ، والجديان الصغيران يمرحان ويجريان.

إن ابنها حي ، لم يمت ، هكذا قال إمام المسجد ــ الشـــيخ عبد الفتاح ــ .. سيعود يوماً، ولهذا فهي تنتظر.

التعاون ــ ١٩٦٧

يا فرحـــة .. ما تمت!

(أصوات ومشاهد)

***صوت أول:**

كان الغناء يتصاعد شجيا، وكانت جوقة المنشدين تهتز يمنـــة ويسرة، وكان الشيخ "محجوب" ذا وجه مضيء كـــالبدر وصوتـــه يتصاعد بالنداء الروحي الجليل، فيهفو إليه اليمام والعصافير والعنادل التي طلقت الغناء منذ وقت طويل!

وكانت زوجته "باتعة" تطفئ الأنوار، وتستعيذ بـــالله مـــن الشيطان الرجيم، وتذكر كيف حاول "محيي" (أخو زوجها الأصغر) إغواءها، فدفعته في صدره، وقالت له في نبرة لا تخلو من عتاب:

ـــ أنا أمك يا محيي، لقد تزوجت أخاك وأنت في السابعة!

قال في وقاحة:

ـــ ولكنه مشغول عنك بأذكاره ومواجيده!

***مشهد أول:**

قال الراوي:

قريتي العصايد، مركز ديرب نجم، محافظة الشرقية (ومـــهم أن نذكر اسمها هنا) قرية من خمسة آلاف قرية مصرية، تضم نحو ســـتة

آلاف نسمة، وهي قرية أم لمجلس قروي العصايد الذي يضم معـــها سبعة بلاد أخرى.

أُنشئت في قريتي عام ١٩٦٢ وحدة مجمّعة تضم مستشـــفى، ومكتب بريد، وسنترال تليفونات، ومدرسة ابتدائية، ومكاتب لمقـــر المجلس القروي.

وبالطبع، كمبنى أي وحدة أنشأتها الإدارة المحلية أنشـــئت في المبنى قاعة مسرح كبيرة لم تشهد إلا خمسة اجتماعـــات جماهيريـــة حضرها رئيس مجلس المدينة (مصطفى بيه الجندي) وأمين منظمـــة الشباب (بدر بدير)، وكان الشيخ أحمد أبو سليمان يقود هتافـــات الجماهير التي تزلزل البلاد السبعة للمجلس القروي:

ــ يحيا جمال عبد الناصر. يحيا مصطفي بيه الجندي!

وكانت هذه الهتافات تتخلل اللقاء بمعدّل هتاف كل خمـــس دقائق، وأحياناً بعد دقيقة أو دقيقتين إذا حدث طارئ وذُكِر اســـم الزعيم الخالد!

وقد كف الشيخ أحمد أبو سليمان عن الهتاف بحياة "مصطفى الجندي" ــ مؤخرا ــ بعد أن نبّه عليه رجل مهم بأن عليه ألا يذكر مع اسم الزعيم (جمال عبد الناصر) اسم أي شخص آخر!

**

*صوت ثان:

قال أبوها (الشيخ محجوب):

ـــ البنت لم تعد منذ يومين إلى البيت يا رئيفة!

قالت أمها:

ـــ إنها تتأخر في فصول الاتحاد الاشتراكي، فتبيت عند خالها في ديرب نجم!

ـــ ولكن خالها له أولاد في مثل عمرها، وعلى "وش جواز"!

ضحكت، وربتت على فخذه وهي تقول:

ـــ بنتك مؤدبة يا حاج "محجوب"، ليست من بنات هذه الأيام! وأشرف وأحمد ابنا سليم أخي مؤدبان، وحيَّان كالبنات، ولا يفعلان العيب!

***مشهد ثان:**

وقفت باتعة على حافة الموج، كانت الرياح عاصفة .. أحست بالشمس تقترب من رأسها، كانت ملتهبة، ويد خبيثة تدفعها تجاه البحر، هوت رجلها ولكنها تعلّقت بفرع شجرة صفصاف، وحينما خرجت إلى الشاطئ ناجية وجدت فراشا أحمر، فوقه بعض الكراسي .. وناس كثيرون يشكلون نصف دائرة، تستمع بشغف إلى خطيب أو مغن أو ما شابه. تمشت، فوجدت أختها "سامية" جالسة تأكل عنبا أبيض، فمدت وأخذت عنقودا قبل أن تعزم عليها أختها!

وصحت من النوم، وهي تحس بطعم العنب في فمها!

ونادت عل ابنتها "حنان" لكي تأتي لها بكوب ليمون يبل ريقها الناشف، فلم تجدها!

**

***صوت ثالث:**

ترك الشيخ "محجوب" الدراسة وهو في السنة الثالثة بكلية الحقوق — كلية الوزراء — التي ألحقه بها أبوه — شيخ الطريقة — قبل أن يموت!

خلع البذلة، وارتدى الجلباب، ولبس العمامة والطربوش!

أصبح الكبار والصغار من مريديه لا يتركون بابه، ويتكلمون في حضرته بصوت خفيض! ويتمنى أحدهم لو يطلب منه "لبن العصفور" ليحضره أسرع من جن سليمان عليه السلام!

لم يكن يتعس الشيخ "محجوب" إلا مرأى أخيه محيي ذي الشعر المشعث المغبر، والذي صار في الخامسة والأربعين، ويرفض الزواج، وسلوكه ليس فوق مستوى الشبهات!

***مشهد ثالث:**

قال أشرف — وهو ينظر في صفحات كتاب ضخم من كتب الجامعة — لحنان:

— لماذا لم يتزوج عمك الأستاذ محيي؟

ضحكت:

ـــ يقول إنه مازال صغيرا على الزواج!

قال ـــ وهو يخفي وجهه في الكتاب ـــ:

ـــ الناس يتحدثون عنه حديثا ...

قاطعته:

ـــ الناس لا يتركون أحدا في حاله!

**

*صوت رابع:

كان أشرف يكبر حنان بخمسة أعوام، هو في السنة النهائية بكلية التجارة بالقاهرة، وهي بالفرقة الثانية بمدرسة التجارة الثانوية بديرب نجم.

يصحو في الفجر، يصلي في المسجد، ويفطر ، ويركب أول حافلة للزقازيق في الخامسة والنصف صباحا ليلحق أول قطار متجه إلى القاهرة في السادسة والربع.

وما بين الرابعة والسابعة مساء يعود!

يقرأ دروسه ساعتين أو ثلاثا كل يوم، وينام قبل العاشرة والنصف، وأحيانا بعد صلاة العشاء مباشرة.

*مشهد رابع:

قال الراوي:

... وكأي "وحدة مُجمَّعة" جاء لوحدتنا جهاز تليفزيـــون، منذ متى؟ الله وحده يعلم! .. المهم أننا أردنا أن نعمل حفلاً بمناســبة العيد الخامس عشر لثورة ٢٣ يوليو، ووافقت الجهات المعنية علــى ذلك، واخترنا مسرحية وطنية لسعد الدين وهبة، ومسرحية إسلامية لمحمد محمود شعبان، وبدأ عامر علي عامر يُعدُّ لإخراج الحفل.

**

*صوت خامس:

ضحكت حنان، وأشرف يقرصها في خدّها الذي احمرّ بلــون التفاح الأمريكاني الذي يراه محمد معروضا في محلات الزمالك حينما يذهب لزيارة خالته "وداد"، زوجة المستشار التي لم تنجب، وتعــده ابنا لها، وتقول له:

ـــ سأزوجك بنت الباشا!

ـــ هل مازال هناك باشوات يا خالة؟

ـــ نعم! الزمالك كلها باشوات.

قالت حنان:

ـــ سأقول لعمتك باتعة أنك تعاكسني!

رفع يديه إلى فوق علامة التسليم، وكأنه يقول: أنا لا أقــدر على أمك يا حنان!

وأضاف في استسلام:

ـــ عمتي باتعة صعبة!

***مشهد خامس:**

قال لنا الأستاذ محيي ـــ حينما زارنا ليطّلع على بروفات المسرحية الإسلامية ـــ وهو ناظر المدرسة الابتدائية بالقرية، وأكبر متحدث في السياسة والأدب والمجلات الخليعة التي تصدرها "بلاد برة" ولا يطلع عليها أحد في مصر، وأخو الشيخ محجوب شيخ الطريقة الصوفية في إقليمنا:

ـــ بدل الحفلة .. خلوا التليفزيون يشتغل؟

ـــ أي تليفزيون يا أستاذ محيي؟

ـــ التليفزيون المرمي في مخازن المجلس.

ـــ ولماذا لا يطلع من المخازن ويشتغل؟

ـــ لأن فيه عطلا فنيا ياسيدي؟

(ولا ندري كيف يكون هناك "عُطل فني" وهو لم يُستعمل على الإطلاق! اللهم إلا إذا كان السيد أمين المخزن يدير الجهاز في المخزن، ويشاهده مع كافة محتويات مخزنه: من الأكياس، والكراسي، والأوراق، وصفائح العسل، والفئران التي تستطيع أن تأتي على مزروعات عزبة صغيرة ـــ مثل عزبة الدكتور عبد الوهاب مورو المجاورة ـــ في ليلة واحدة!)

**

***صوت سادس:**

ضحكت حنان وأحمد يشد يديها، ويتحسس شعرها، وينظر بشهوة من فتحة الفستان ليرى منابت ثدييها:

ــ سأقول لأشرف أخيك!

قال في صوت واهن:

ــ أشرف مشغول ببنت الباشا التي ستزوجها خالتي له!

وشد يدها مرة ثانية، ولواها ــ وهي تقول ــ:

ــ لن أجيء إلى بيتكم مرة ثانية!

***مشهد سادس:**

... بدأنا حملةً لتمويل الحفلة التي سندعو إليها المحافظ، ورئيس مجلس المدينة، وأمين منظمة الشباب، واقترحتُ أن نأخذ من كل أسرة ــ بإيصال ــ خمسة قروش.

وحينما بدأنا عملية تمويل الحفل، قال لنا الفلاحون والطلاب والموظفون والنساء والأولاد الذين لم يخرجوا من البيضة بعد ــ في نَفَسٍ واحد ــ:

ــ خلوا التليفزيون يشتغل.

وقال لنا طلاب المعهد الديني بالزقازيق:

ــ كل القرى المجاورة للزقازيق تليفزيوناتها تشتغل، والنـــاس يشوفون النشرة، وحلقات المسلسلات، ومصارعة محمد علي كلاي، وخطب جمال عبد الناصر، ورقصات نجوى فؤاد!

وقال لنا الأهالي والمسؤولون ــ وكأنهم على اتفاق ــ:

ــ متى سيشتغل التليفزيون؟ ..

وعملنا اجتماعاً مع رئيس المجلس القروي، ووكيلته، وحمـــل رئيس المجلس التليفزيون في سيارة المجلس إلى ديرب نجم، وعـــاد في آخر النهار ليُفاجئنا بالخبر المثير: إن إصلاح الجهاز سيتكلف عشـرين جنيهاً.

**

*صوت سابع:

أحمد متوهج المشاعر، يحب كل شيء في حنان. صوته يجلجل في أذنيها دائما، ويقول حكايا لا نسمعها لنكتبها هنا، وأشرف بعيد .. بعيد عند خالته "سامية" التي ستزوجه بنت الباشا في الزمالك ..

حنان تستجيب لأحمد، وأحمد صغير "على قدّها".

قالت رئيفة للشيخ محجوب:

ــ أشرف طار منا إلى قصور الزمالك.

ــ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين!

ــ أحمد ولد حبُّوب!

ـــ ربنا يحفظه بفضله وكرمه..

صمتت برهة، ثم قالت بصوت خافت:

ـــ أحمد فيه البركة .. أشرف ابن أمه!

أفاقت على صوت الشيخ محجوب:

ـــ ماذا تقولين؟

قالت وهي تقوم، وتنفض ثوبها من بعض الغبار الذي علق به:

ـــ خالة أشرف ـــ زوجة المستشار العاقر ـــ تقول إنها ستزوجه بنت السلطان!

***مشهد سابع:**

أحست حنان ـــ مع أحمد ـــ أنها تخطّت الزمان، والمكان .. أصبحت نجمة تحلق في الشفق البعيد، أو نسمة حرة تنطلق في ملكوت الله، وكانت تعود بعد العشاء فلا يسألها أبوها: لماذا تأخرت؟

**

صوت أخير:

كنا قد جمعنا من الأهالي خمسة عشر جنيها، وقال لنا الأستاذ محيي:

ـــ الحفلة ليست مهمة يا أساتذة. الأفضل إصلاح التليفزيون!

وردد القرية ما قاله الأستاذ محيي:

ـ الأفضل أن التليفزيون يتصلّح!

وتطوع بعض الزملاء لجمع خمسة قروش من كـــل طـــالب إعدادي، أو ثانوي، أو جامعي، ويقال إن بعض الفلاحـــين دفعـــوا عشرة قروش، وبعضهم أقسم بالله ألا يدفع، وألا يُشارك في منكـــر، واعتبرناها حجة لعدم الدفع بالتي هي أحسن!.

***مشهد أخير:**

ابتسم المصور رافعا قبعته، فبدت رأســـه الصلعـــاء كبـــيرة، وبيضاء، ولامعة، وهتف أحمد أبو سليمان بحرارة "يحيا مصطفى بيـــه الجندي"، وأظهر الشيخ محيي مجلة مليئة بالصور العارية التي تظـــهر فيها النهود والأرداف بدون ورقة التوت، وتوقفت حنان عن الكلام المباح، فلن تسعفها الكلمات لتصف كيف أحست وقع أول قبلة من أحمد في فمها، كان صوت أبيها ينشد مواجيده التي تترقرق عذبةً في الفضاء العالي، وكانت تحس أنها تحتوي العالم كله في صدرها، وكان خدر غريب يسري في أطراف جسمها، وكان جمال عبد النـــاصر يقول إن اليهود وصلوا إلى قناة السويس، وإنه سيتنحّى لمن يقـــدر على إدارة الصراع في هذه الفترة، وخطب الشيخ إبراهيـــم حمـــزة (الإخواني القديم) قائلاً: إن اللعنة تطاردنا لأنا ابتعدنا عن منهج الله!، وادّعى (الأخوة المسيحيون) أن العذراء تظهر في الزيتون، وظـــهرت في قرية مجاورة واحدة قيل إنها حملت بدون زواج وقالت إن هتلـــر

أتاها وبشرها بالنصر على اليهود، وأنها ستلد طفله! وكان التليفزيون يعرض رقصة مجنونة لواحدة تفتح ما بين ساقيها حتى أقسم الشيخ عبد المقصود أن هذا إفك قديم، وأنها تُظهر مالا يحق لأحد غير زوجها — إن كانت متزوجة — أن يراه، وولدت "معزة" عبد الجواد صاعد خمسة توائم، قيل إن أحدها يحمل رأس إنسان، وادّعى خليل أبو مبروك أن "أم محسن" التي ماتت وهي تلد في الحرام على يدي حلاق القرية أنها قالت إنها حملت من جني نصراني كان متلبسا بها! وكان طلق ناري يخترق الظلام!

وحمامة بيضاء تسقط في الظلال الباهتة مضرّجة بالدماء!

وجهاز التليفزيون ينفجر، كأنه قنبلة، ويعم الظلام كل شيء.

المساء — ١٩٧٠/٩/٢٣

الأتوبيس .. والركوبة الملاّكي!

حينما وصل إلى القاهرة بمفرده ـــ ليُقدّم أوراقه إلى الجامعـــة تذكّر قول أبيه له:

ـــ "خذ بالك من السيارات العامة في مصر، حذارِ أن تُسرق، أو تُضيّع نقودَك".

أنزلته سيارة الأجرة التي ركبها من ديرب نجم في ميدان "أحمد حلمي"، هاله الزحام الذي رآه، وأخافته كثرةُ السيارات.

ولأن هذه هي المرة الأولى التي يجيء بمفرده فيها إلى "أم الدنيا" فقد كان حذِراً؛ صحيح أنه جاء إلى القاهرة مرات قليلة مع والـــده لزيارة آل البيت ـــ رضي الله عنهم ـــ سيدنا الحســـين، والســـيدة زينب، والسيدة نفيسة. وصحيح ـــ أيضا ـــ أنه جاء منـــذ أربعـــة أعوام ليكشف عند طبيب مشهور عن علة أصابته، وأرّقـــت أُمـــه يومها لدرجة أنها قالت لأبيه: إنها مُستعدة لبيع قـــيراط أرض (مـــن قيراطيها اليتيمين .. رحمها الله) لتُعالج ابنها الوحيد! ولكن الصحيـــح (قُل الواقع الذي لا مفر منه) أن أباه تزوّج، ومشـــغول بـــالغندورة الصغيرة، وتركه لأول مرة يُسافر بمُفرده! هل هذه مقدمـــة لأيـــام الجامعة بنكدها وغُربتها؟

قالوا له في ميدان رمسيس ـــ بعد أن عبر نفقاً مُظلما تحـــت القطارات التي تنقل البشر من أرجاء مصر المحروسة إلى القاهرة:

ـــ لابد أن تركب الأتوبيس رقم (٩) أو (٩) بِشرطة لأنه هو الذي يمر على شارع المساحة بالدُّقي حيث يوجد "مكتب التنسيق"، وعليه أن يسحب الأوراق قبل الظهر، ثم يُعبِّؤها باختياراته ويقدِّمُـــها للمكتب مرة ثانية في الخامسة مساءً، ويركـــب قطـــار الخامســـة والنصف إلى الزقازيق، أو الحافلة المتوجهة إلى دمياط في السادســـة حتى تُوصِّلُه إلى ديرب نجم.

ولأنه يخاف على أوراق الثانوية العامة التي حصل عليها بتســع وثمانين في المائة، ويخاف على الورقة بخمسة جنيهات (كاملة) الـــتي أعطاها له أبوه بعد أن حاسب سيارة الأجرة التي تُقلُّـــه إلى ميـــدان أحمد حلمي، فقد وقف ساعة كاملة ينتظر حافلةً فيها مكان لقدميه. تبين بعد أن مرَّ به أكثر من عشرين حافلة تحمل الرقـــم (٩) أو(٩) بشرطة. تيقَّن أنه ينتظر المستحيل!!

قال لنفسه: "فلتحاول أن تركب مثل خلـــق الله" ، ورغـــم الزحمة والصيف الخانق في العاشر من يوليو فقد اســـتطاع أن يجـــد مكاناً في الحافلة المليئة بالشباب، والشـــيوخ، والنســـوة، والبنـــات المتزويات وسط هذا التلاحم الخانق! بيده اليســـرى ملـــف أوراق الثانوية العامة، وبيده اليمنى يتحسس على جيب بنطلونه!

ووصل أخيراً إلى محطة المساحة، وكان قد طلب من عجوز تجلس بجوار الشباك أن تنبهه عندما تجيء المحطة. يبدو أنها قد نبهته مُتأخرة فلم يستطع الوصول إلى الباب إلا بعد محطة كاملة، ولعل هذا كان من تصاريف القدَر الجميلة التي يحمدُها، فقد أعطته فرصة لتحريك أقدامه التي ظن أنها قد أصابها العطب في زحام الحافلة، وكانت فرصة ليُعيد هندمة ملابسه التي ضاع أثرُ المكواة عنها، وأن يُدخلَ قميصه في البنطلون، وأن يحمد الله على أنه نزل من الحافلة سالماً، لم يفقد يدا أو رجلا!

وفكّر كيف كان حماره الحصاوي المُطهَّم" يقطع المسافة من العصايد إلى ديرب نجم في ساعة زمن — في البرد أو الحر لا يهم ، فحكايات زميله الأثير خليل تدخل قلبه دون استئذان، ويمر الطريق كأنه خطوات معدودة!

كانت حكايات خليل تسير أجواء تشبه حكايا ألف ليلة وليلة التي قرأها في كتاب أبيه القديم الذي يُخبِّؤه تحت مرتبةِ السرير!

كان في الأعوام الستة الماضية — على امتداد سنوات الدراسة في المدرستين الإعدادية والثانوية بديرب نجم يحلم حلماً مجنوناً لم يحققه الله إلا في الشهر الأخير من السنة السادسة، وهو أن ينفق حماره حتى يركب الحافلة الخالية من الركاب التي تتنقل بين السنبلاوين — العصايد — ديرب نجم — ميت غمر ، ولا تجد من يركبها!

لكنّه بعد أن مر بتجربة هذا الصباح في الحافلة ذات الرقم (٩) بِشرطة، وبعد أن رأى كيف يمتهن الجسم الآدمي (ملحوظة: لا أستطيع أن أصف في هذه المذكرات كل ما رآه صاحبنا في الزحام على امتداد نصف ساعة من امتهان للآدمية حيث الأجسام متداخلة، ورائحة العرق البشعة مختلطة بالعطر الرخيص، وأجسام البنات مُنتهَكة في خصوصياقما) (ملحوظة ثانية: لا أستطيع أن أكتب أكثر من هذا، فقد يقرأ أبي هذه المذكرات، فيظن أنها قد حصلت لي فيحلف بالطلاق أني جننت).

جلس في حديقة قسم الجغرافيا لا يُغادرها، على حشائشها كتب رغباته، وفي الخامسة مساء كان أول الواقفين أمام الشبابيك لتقديم أوراقه. وبعد أن قدَّم أوراقه لم يُفكِّر في تنفيذ برنامجه الذي كان قد عقد العزم بينه وبين نفسه على تنفيذه: المبيت عند قريبه صابر مخلوف زوج عايدة ابنة خالته في شُبرا، وأن يزور غدا صباحاً المتحف المصري والقلعة، ويُصلي الظهر في الأزهر، ثم يزور أولياء الله الكرام:الحسين، والسيدة زينب، والسيدة نفيسة "شي الله يا أهل البيت!"، ثم يعود مساءً في حافلة السادسة مساء المنطلقة إلى دميلط، حيثُ يترل في ديرب نجم، ويعود ــ ولو ماشياً ــ إلى العصايد.

بعد أن قدَّم أوراقه لم يفكر في أن يُنفِّذ البرنامج! لم يركب حافلةً أو سيارة أُجرة، مشى على قدميه، سأل، والذي يسأل في

مصر لا يتوه، عبر كوبري الجامعة، فالمنيل، فشارع القصر العيـــني، فميدان التحرير، فشارع الجلاء، ووصل بعد ما يقرب من ســـاعتين إلى ميدان أحمد حلمي، وركب سيارة أجرة ـــ صاحبها من بلدهـــم ـــ إلى ديرب نجم، وطوال الطريق كانت فكرة مجنونة تُداعبُ خياله:

لو كان معه حمار (كحماره الحصاوي المأسوف على رحيلـــه ـــ أو شبابه ـــ منذ شهرين ونصف!) الحمار الذي عـــرف قيمتـــه اليوم، واليوم فحسب..!

لو كان ـــ و"لو" هذه من عمل الشـــيطان ـــ لكـــان نفـــذ برنامجه، وزار أولياء الله واحداً واحداً، والمتحف المصري، والقلعـــة، وحديقة الحيوان، و...، و..

لاشك أنه سيكون بطيئاً، ولكنه سيكون مريحاً ومُحترمـــاً في مدينة يفتقر الإنسان فيها إلى الراحة والاحترام في مواصلاته.

النقل البري ـــ ١٩٧٠

الشـاطئ الأخـير

في المساء الأخير رقدت "ناعسة" على السرير الذي يتسع لها بالكاد. الدفء يتسرب من الفرن الذي سوّت فيه ابنتها قبل الإفطار "صينية" من البطاطس باللحم وأُخرى من القطايف!

هل هلالك شهر مبارك ..

ها نحن في اليوم الثاني من شهر رمضان المبارك. المذياع المفتوح في الغرفة المجاورة ينقل خطبة لشيخ عن الشهر الميمون!

هاهي منذ أعوام طويلة — لا تعرف عددها — تقضي رمضان وحدها؛ فقد تفرق الأولاد في أنحاء الأرض!

أحمد في البرازيل، وسامي في السعودية، وزاهر في الإمارات، وسليمان في سنغافورة. و لم تبق بجوارها غير هانم التي حصلت على ليسانس في الحقوق منذ خمسة عشر عاما، وتعمل بالشؤون القانونية بالإدارة التعليمية، وأنجبت خمسة مثل أمها. تترك أكبرهم — وهو في الصف الخامس الابتدائي — ينام مع "ستة" ليأخذ "حسها".

— والله فيها خير. لم تكن تحب خلفة البنات، ولكن هاهي البنت هي التي تقف بجانبها في الكهولة، بينما الأولاد بعيدون!

منذ ثلاثة أعوام أصر أحمد على أن يركب خطا هاتفيا لأمـــه حتى يستطيع أن يهاتفها يوما بعد يوم. وأرسل لزوج هـــانم عـــدة آلاف حتى يستطيع أن يركب لها هاتفا فوريا.

أحمد ابنها "البكر" قال لها في مكالمته الهاتفية أمس الأول إنـــه سيجيء لها ـــ مع زوجته البرازيلية، صاحبة مصنع النسيج وابنيـــه ـــ ليقضي شهر رمضان في البلـــد، وينعـــم بجـــوار الأقـــارب ودفء الأصدقاء!

إنها تحس بمغص يكاد يفتك بها! فهل تموت قبل أن ترى البكر العزيز وزوجته وولديه؟

هاهو طائر الموت يحوِّم في الغرفـــة .. يحاصرهـــا بأجنحتـــه السوداء الضخمة الثقيلة. حدّقت في عينيه رأت وهجا ناريا ينطلـــق كالسكين ليصيب الأحشاء. قاومت .. أحست به يُقيِّد رجليها!

قشعريرة باردة تصعد من أسفل الجسم إلى أعلاه. حاولت أن تقوم فلم تستطع. لاحقت عيناها الأجنحة السوداء التي تملأ فضـــاء الحجرة، فرأت من خلل الجناحين أبناءها الأربعة صبية صغارا متروين في الدهليز يبكون، وعلى حجرها وجه أبيهم الشاحب يمسك بيـــده المعروقة مروحة من سعف النخيل، يهف بها على وجه "ناعســة". .. بينما "ناعسة" تبتسم ابتسامة كبيرة، ولا تريد أن تُغمض عينيها.

المجلة العربية ـــ أغسطس ١٩٩٨

حفـل عيد الميلاد

(١)

قال الرجل النحيف ، الرث ، ذو الستين عاما ، الذي يلـــوك في فمه قطعة صغيرة من الأفيون اشتراها بعشرة قروش سرقها مــــن ابنته الجميلة ذات الشعر الذهبي المسترسل على الكتفين:

ـــ هذا حل مرفوض.

ردّ ابنه ثائراً:

ـــ لا حل عندي غير ذلك.

أراد الرجل أن يتكلم، لكن الابن أدار ظهره ودخل الحجـــرة المجاورة. ماذا يريد هذا الرجل بالضبط؟ إنه أبي صحيح. ولكن هـــل يصبح شعارنا: لا أسمع، لا أبصـــر، لا أتكلـــم، والبطـــن ينبعـــج، والفضيحة ستنشرها الريح في أرجاء مدينتنا الصغـــيرة، وســـتنطلق الألسنة من عقالها. وكل فم يضيف إلى الحكاية كلمة جديدة حـــتى تتحول الريح إلى عاصفة عاتية تقتلع ورقتها الذابلة من شجرة الحياة.

دخل أبوه وراءه حجرته، أمسك سعيد زمام الكلمـــات، لم يطلقها دفعة واحدة في وجه أبيه:

ـــ أبي .. أعتقد أنه قد حان الوقت.

ـــ لكتابة طلب نقل، وللسفر إلى القاهرة.

ـــ لا، لقتل هذه الكلبة.

نامت عينا أبيه وما زالت الكلبة خارج البيت.

ازدادت ضربات قلبه عنفاً، صراع حاد يوشك أن يفجر رأسه، البطن ينبعج ويكبر، وألسنة الناس طويلة لا ترحم في هذه المدينة الصغيرة النائمة في شمال الدلتا.

من أين تجيء الريح؟ بل من أين يجيء الحزن؟

(٢)

البطن يكبر ويكبر، وتأكد سعيد أنه يضم ثمرة محرمة، أصبحت في شهرها السابع أو الثامن. لا، لا، لن يجيء هذا المولود، لابد أن يموت، وتموت معه هذه الكلبة .. زجاجات الخمر فوق المائدة ـــ في المطبخ !! ـــ لم يذق الخمر في حياته. أنغام صاخبة تتصاعد من "المسجِّل" المُلقى على الأرض. لابد أن يقتلها، فالملعونة ستجلب له العار في هذه المدينة التي يحترمه فيها الجميع

زوجها المهندس "فتحي" تركها منذ أحد عشر شهرا وذهب إلى ألمانيا في مهمة تدريبية. اختاره رؤساؤه في هذه المهمة لكفايته. وكان عليها أن تعود للمدينة الصغيرة التي شهدت طفولتها، وصباها، وقصص حبها المرسومة ـــ في قلوب يخترقها السهم ـــ على الحوائط العتيقة والأشجار المعمَّرة!

يعمل سعيد مدرسا للعلوم في المدرسة الثانوية، ورغـــم أنـــه محبوب من الجميع فقد أصبح يكره هذه المدينة لأنها تضم أخته معه!

فتحت الباب، ودخلت يفوح منها رائحة الخمر:

ـــ لهى! أين كنت حتى هذا الوقت المتأخر من الليل؟

أجابت بلا اكتراث:

ـــ كنت عند "الدكتور ثروت".

ـــ ماذا تفعلين عنده؟

ـــ لم أكن وحدي، كنت مدعوة للاحتفال بعيد ميلاد طفلتـه "جيهان".

قال في صوت بين الهمس والجهر، اجتهد ألا يحمل نـــبرات غضبه:

ـــ قلت لك ألف مرة لا تخرجي من البيت مســـاء إلا وأنـــا معك .,

ـــ هل جئتُ إلى هنا لتحرسني، وتحبس حريتي؟

ودفعت باب حجرة نومها، وأوصدته خلفها.

حرية؟؟ آه المجنونة! سأريها معنى الحرية .. لابد أن أقتلـــها، بطنها يرتفع.. منظره منفّر جدا. لابد أن الناس في كل مكان مـــن البلد سيُشيرون إلى بطنها بأصابع الاتهام. سأضع حلا لهذه المشـكلة. ألا تعلم هذه الخاطئة أن هناك شيئا اسمه الشرف؟

(٣)

في صباح هذا اليوم الأسود (والنهار الأسود يطل سواده مـــع مطلع شمسه)، ارتدت فستانها الوردي، ووضعت "إيشـــاربا" أحمـــر حول عنقها، وبدت ـــ في عيني سعيد ـــ كامرأة داعرة، سألها:

ـــ إلى أين ذاهبة؟

أشارت إلى بطنها، وقالت:

ـــ عندي انتفاخ دائم، وأريد أن أسأل الطبيب في هذا الأمر.

سكت، وتظاهر بعدم الفهم، أتحسبه من المجانين حتى تتحـدث معه بهذه الطريقة الغبية؟! أم تظنه لا يفهـم؟

عادت في الثانية عشرة ظهرا وهي عصبية، وحينمـــا ســـألها سعيد قالت إن الطبيب أخبرها أن الانتفاخ سيستمر فترة قصـــيرة، ثم يعود البطن إلى حالته المعتادة!

الطبيب ـــ فيما يبدو ـــ رفض أن يخلّصها من الجنين!

(٣)

نظر سعيد من الثقب فوجد الجسد المخمـــور ملقـــى علـــى السرير، بعد فترة ارتفع شخيرها. لشدَّ ما كانت متعبة من حفلة عيد الميلاد!

نظر إلى صورة والده على الحائط:

ـــ هذه هي النتيجة!

قال أبوه في صوت واهن:

ـــ ماذا تعني؟

ـــ الفضيحة .. الفضيحة .. الفضيحة!

ـــ أنت لم تعرك الحياة! لا تعرف إلا المسجد، والتلاميـــذ في المدرسة..

ـــ أخلى ذاكرته من الحب والسكينة، وقال:

ـــ لماذا لا تؤدب هذه الكلبة؟

ـــ أنت لم تعرك هذه الحياة!

ـــ وهل هذه الأمور تحتاج إلى خبرة؟

ـــ بلا شك!

ـــ إذن قل لي ماذا نفعل؟

ـــ نحبسها حتى تلد، ونُلقي بالطفل إلى أقرب شارع، وبـــذا نتقي الفضيحة وخراب البيوت.

ساءه هذا الحل، وهمّ بأن يحطّم صورته! لكنه لم يفعل، فقـــد كان في ذهنه حل آخر رفض أن يُحدث أباه فيه!

صوت الشرقية ـــ نوفمبر ١٩٧٧

مهاتفة صباحية

يا ربة البيت أين أنت ؟

لم ينظر إلى حجرة الاستقبال، التي تتصاعد منها بعض الأصوات النسائية الخافتة.

دخل حجرة مكتبه وترك الباب مواربـاً.

مهاتفة صباحية، وحر يوليو يشعل الرأس والوجه والأيدي.

شهد اليوم ما تبغيه فائزة من عراك وصياح. رغم أنها مريضة بعد موت وليدها السابع في تسعة أعوام.

ها هو يُقلب صفحات الصحف. اختلط الضحك بالبكاء. وهو يتذكّر كيف قال الجميع للمطرب الأخرس: أحسنت يا عندليبَ الغناء!

جرى في خافقه خاطر غريب:

لماذا لا يطلق السياسة ويكتب في يومياته عن شيء آخر؟ ذكرياته وهو طالب في الجامعة في أواخر الستينيات ــ أيام حرب الاستنزاف ــ وأغاني الشيخ إمام؟ عدنا للسياسة مرة أخرى.

لم لا يكتب عن نفسه هو حينما كان في السابعة عشرة من عمره عام ١٩٦٧فهوى سكين الهزيمة على العنق الغض وأسال دماء قانية؟!. ألم يلتحق بقسم التاريخ في العام التالي للهزيمة ليعصم نفسه

من السقوط في وهدة اليأس حينما تكلم فلاسفة الهزيمة عن شراسة العدو وكأنهم يكرسون الهزيمة من أبناء القردة؟!

لا .. لا ..

دعنا من السياسة التي سلخ في كتابتها ستا وعشرين سنة من عمره، وأبعدته عن مستقبل كان ينتظره في كتابة الشعر.

فلأكتب عن رباب التي ظلت تنتظرني، وطال انتظارها لي حتى تزوّجت بعد زواجي بخمسة أعوام!

لا .. لا.

فلأكتب عن قصائد شعر .. تتفتح لزخات المطرِ؟ يكتبها الأدباء الطالعون .. يغنون فيها للذي لا يجيء؟

تنزلقين يا "رباب" على ضباب الذاكرة في صباح القاهرة الساخن .. الذي يتداخل فيه زحام الحافلات بضجيج المقاهي، والهمس من وراء شيش الشبابيك بأغاني سوقة الزمن الأخير، وغناء سيارات الأجرة في ثرثرته الغبية التي تذكّرني بحكايات حلاّقنا القديم في قريتنا النائمة في أحضان الخضرة والسكينة.

وحدة، وقلق، ومراجعة لما كان ينبغي فعله من زمن طويل. الرغبة تُفصح عن نفسها، ها أنت يا رباب تتعثرين في فستانك الأخضر الذي تخشاه فائزة بعد أن أنجبت سبعة بنين ماتوا جميعاً قبل أن يبلغوا عامهم الأول!

هاهي تنتظره في صالة الانتظار في الصحيفة الكبرى، وهو يجيء من الشارع لا من المصعد.

لماذا حدّثت فائزة عن رباب؟

ما أكثر أخطائك يا عبد التوّاب!

مهما تألقت التنهدات في حلقك يا رباب، واكتست عيناك بألق الحب القديم .. فستدحرج الخيبةُ والقنوطُ أصداءَ كلماتِنا العفوية كلما نلتقي مصادفة، وبلا تخطيط!

ــ أهلا يا رباب ...

ــ كيف حالك يا عبد التواب؟

قالت له فائزة في الصباح: لماذا لا تعترف بالفضل لأهل الفضل؟ .. أنا الذي صنعت منك هذا التمثال الجميل، وأنا الذي سأحطمه إذا رأيت هذه الرباب!.

يتصاعد الرذاذ من فمها المحشو بالبارود والمتفجرات، فيلجأ إلى كتبه وأقلامه، وأوراقه.

ها هو قد عبر الخمسين و لم يصل إلى أية وظيفة قيادية في صحيفته، حصل على الماجستير وهو في الأربعين، وترك الدكتوراه بعد أن أنجز أكثر من نصفها. ما فائدة أن تدرس التاريخ ثم تُدرّسه بعد ذلك في الجامعة وتؤلف فيه لطلابك وهم يُشوهون التاريخ في صحيفتك ــ هذه التي تجلس في بهوها مع رباب ــ كل صباح؟

ظهر زوج رباب فجأة، ثم اختفى فجأة.

في مهاتفة صباحية قالت رباب لعبد التواب إنها تحتاج نقوداً. يعرف عمق العلاقة، لم تطلب من أختها الأستاذة بمركز البحوث، ولا من أختها الموجهة بالتربية والتعليم، ولا من ابن عمها.

ليس لها أخوة ذكور.

رغم أنها لم تتزوّجه، فمازالت تحس نحوه بشيء ما لا يستطيع تحديد اسمه، لعلها تعتبره بمثابة أخ لها، تستشيره في أدق خصوصياتها.

قالت له: إن زوجها ترك وظيفة مدير عام للتسويق، وعمل في عدة مشاريع آب منها بالخيبة والخسران، وهرب وظهر، وهرب!

أخرج لها ألف جنيه وقال:

ــ حينما هاتفتِني في الصحيفة خرجت وأحضرت هذا الألف من حسابي بالبنك.

قالت وهي تنظر في الأفق البعيد في اللوحة المقابلة التي رسمها فنان مشهور:

ــ سآخذ خمسمائة جنيه فقط، وأردها لك على شهرين.

لم يسألها:

ــ أنا أعرف أن معك نقوداً .. فهل أخذها زوجك قبل اختفائه الأخير؟

يصاحبها ألق الجمال الذي عرفه في الحب الذي وئد قديمـــاً، تتعثر حروفها ــ بين ثلـــوج الثامنـــة والأربعـــين ــ في شـــفتيها المخضوبتين بالجرأةِ الغائبة، وذكريـــات الجامعـــة، والمظـــاهرات، ومحاضرات شوقي ضيف، والنعمان القاضي، وحكايات أبي الفـــرج الأصفهاني المسلية، وألف ليلة وليلة، ونداءات الرحيل!

أخلى لضحكة صافية مكاناً بين جراح قلبه:

ــ كنت أحضر دروسك في قسم اللغة العربية أكثر مما أحضر في قسم التاريخ.

اعترهما هزة جاهدت في إخفائها .. فوّتت الملاحظة .. وقالت:

ولذلك أنت من الكتاب المتميزين.

كتّاب؟ .. صحفي على قدّ حالي يا رباب.

أما زلتِ تُحسنين الظنَّ بي .. وأنا الذي قلتِ لكِ ذات مســاء مكفهر: تزوّجي يا رباب .. فليس عندي لصحرائك ماء!

ومع ذلك لم تتزوّجي إلا حينما عرفتِ بزواجي من فـــائزة في البحرين. ذهبت لأعمل في صحيفة هناك فوجدها تعمل في تدريـــس اللغة العربية مثلك، إنها تُشبهك كثيراً.

هل ذكّرتني بك .. فتزوّجتها هي؟!

***

خرجا من الصحيفة بعدما شربا كوبين باردين من العصير .

الظهيرة تبصقهما بجوار المستشفى الجامعي، يتحسس سـحابة الجهامة .. كل المشاوير خاطئة في فم فائزة المحشو بالكراهية والنفور. فكيف تكونين يا رباب ضفة مشتهاة، وأنتِ ثمـرة محرمـة في يـد الهارب البعيد؟!

استقلت سيارة أجرة ومضت.

الكلمات مفلسة.

ها أنتِ بنظرتك الساهمة القديمة يا رباب لا تنتقدين تصـرفي، ولا تلعنين كتاباتي التي اختفى منها الوهج القديم. وتبتسمين ..كمـا كنت دائماً. لعلك لا تُتابعين كتاباتي السياسية الميتة عـن القـارة العجوز أفريقيا، وجنرالاتها الذين لا يهرمون، وحروبها الدائمة!

أضاعت هذه الصحيفة الشمطاء تألق كتاباتي فصرت واحـداً من جثثها المحنطة، أكتب الكتابات المعلبة التي لا تستثير أحداً.

أيتها الفراشة الخضراء، بين جفنيك ترقد عذاباتي، وتبحـث آهاتي المتعبة عن قلبٍ حانٍ لا يسلقني بلسان كالمبرد.

أين مني سحابة الوعد التي تمطرني بالحنان والعطف؟

وأنت يا فائزة وردة قصية قصية.

كم أود خلع ذاك القميص الثقيل، فـالجو خـانق. وأنـت تتكلمّين بالعقل الذي يؤطّر بستانك، ويُبعد الصهيل عن مفـازات السكوت!

***

مشت رباب، وابتعدت، لم تنظر إلى الخلف.

قبل أن أفكّر في صعود الدرج للطابق الخـــامس ـــ في نفـــس العمارة التي أسكن في الدور الثاني فيها ـــ لمحادثة صديقي "حلمـــي أحمد"، كي يمنحني فسحة من الوقت ، لتأجيل خيباتي:

خيبة قديمة .. خيبة جديدة .. خيبة مقبلة. في زمـــن تضـــرّج بالسواد والحداد!

لا ..

فلأعد إلى البيت، ففائزة حزينة، ومريضة منذ أسبوع.

لأجلسْ معها وأحدّثها في حنان حتى لو لدغتني بذ .ـها الـــذي يشبه العقرب!

هذه فائزة تجلس مع صديقاتها اللائي جئن يعزينها في وليدهـــا الأخير. الحديث مزيج من المجاملات، والأكاذيب، وكـــل حـــرف يُباعد بين غدنا الذي لا يجيء وأمنياتنا الموءودة .. وأفراحنا المؤجلة.

***

أدرت وجهي للجهة الأخرى، وفي عيني حزن رباب، وصوت فائزة ينبعث واهناً ضعيفاً، كأنه آتٍ من جب بعيد!

متى ـــ يارب ـــ ... لا أفعل الذي كان يجب ألا أفعله ؟

أحضرت القلم لأكتب مقالة أخرى ـــ طلبها مـــني رئيـــس التحرير ـــ عن راهن أفريقيا الملبَّد بالحروب وغياب الديمقراطية.

الرياض ١٩٩٨/٧/٢

صبـاح امـرأة

ارتفع صوتي سائلاً عمّا يحدث في صباح الجمعةِ، والناسُ نيام، حين تناهي إلى أذنيّ صوتٌ أنثوي رقيق.

دعوتُ الله ألا يكون حقيقة، وأن يكون هذا الصوت حلمـاً من الأحلام التي لا تكف عن زيارتنا في غربتنا الـتي لا تريـد أن تنتهي!

اطمأننت إلى أنني صاح، لا أحلم.

أزحت البطانيات الثلاث التي لففت بها جسمي المتجمد برداً، عقب أداء صلاة الفجر، وصرخت:

ــ ماذا جرى يا عبد الغني؟

ــ امرأة يمانية.

ــ ماذا تريد؟

أجاب في اقتضاب:

ــ تسألني ..

البرد قارس، شددت الجورب من فوق المنضـدة المجـاورة، ودسستُ رجلي فيه، ووضعت رجلي في الشبشـب "الشـمبلا"، ورفعت صوتي الذي يملؤه البلغم:

ــ هل تسألك في مسألة رياضية؟

ـــ يا أخي بلا مزاح .. تسألني في فتوى؟

ـــ وهل أنت مفتي الديار اليمانية؟!

***

المدرسة الثانوية التي نعمل بها تبعد عن القرية بمسافة ملائمة، وحينما نهبط إلى القرية ـــ في الشعاب الممتدة بين الجبال ـــ ثم نصعد، تتقطّع منا الأنفاس.

قاطعنا القرية خوفاً، وقاطعتْنا شكا، منذ سمعنا منذ شهر ونصف أن قرية مجاورة في محافظة صنعاء أحرقت مدرساً مصريا!

حكى لنا عبد الله عثمان أن هذا المدرس التعيس كان يسهر عند المرأة في "المقهاية" بين الجبل والوادي كل ليلة، بينما زوجها مسافر إلى السعودية للعمل في شيشة([1]) في تبوك، ولكنه يستطيع أن يعود مرة كل ستة أشهر، حينما يسافر زميله اليماني الآخر عبد القوي ليديرها.

وحينما يعود اليماني حمود ـــ وهذا اسمه ـــ يجد زوجته تدير المقهاية، و"المصري" / الفلاح يُدرِّس لتلاميذ القرية صباحاً، ويحرث الأرض التي صارت بوراً منذ سافر صاحبها إلى تبوك مساءً.

([1]) يطلقون على محطة التزويد بالبنزين ـــ في اليمن ـــ شيشة.

تعرّف المصريُّ على اليماني في إجازة من إجازاته، وأحبَّ كلٌّ منهما الآخر وأنِسَ إليه، لكنه حين جاء من تبوك ذات يوم، وكان قد غاب خمسة أشهر، قالت له زوجته:

ـــ إن المصري يحرث الأرض، ويضع فيها البذور.

قال قلقاً:

ـــ ومتى تُثمر؟

فأجابت في نقاء سريرة وهي تُربِّت على بطنها:

ـــ بعد ستة أشهر.

وأخذَ المصريُّ اليمانيَّ ـــ في صباح الجمعة ـــ إلى الوادي ليُطلعه على النباتات الجديدة التي استجلبها من مصر، وزرعها في عمق الوادي، وطعّم بها التربة اليمانية.

أطلق اليماني على المصري الرصاص، وسكب عليه البترول وأشعل فيه النار، ويُحكى أنه عاد مذهول العقل إلى زوجته، فسألته لماذا أنت مصفرّ الوجه، فأطلق عليها الرصاص، وسكب عليها البترول أيضاً وأشعل فيه النار!

***

دخلت المرأة اليمانية حجرتنا المتواضعة، التي تُجاور السحاب، والتي تضم سريرين صغيرين متقابلين، وبينهما منضدتان صغيرتان.

فوق كل سرير مرتبتان من الإسفنج، وبعـــض البطــاطين، ووسادة تحتها رسائل الزوجة التي تصلنا في الغربة، ونتلوها أكثر مـن مرة، حتى تأتي رسالة جديدة ــ بعد أسـبوع أو عشـرة أيـام ــ فنضعها مكانها تحت الوسادة، وتُزاح الرسالة السابقة مــع أخواتهـا لتوضع في الحقيبة الجلدية أسفل السرير!

***

دخلت المرأة حجرتنا التي لم تدخلها امرأة من قبل، راعني أنها سافرة وجميلة، فنحن لا نرى من اليمنيات إلا عينين تبرقان من خلف الشراشف.

قلت لها:

ــ أنا مدرس الدين ماذا تُريدين؟

قالت وهي تضع جسدها الرخص على السرير المقابل:

ــ أريد أن أسألك في فتوى يا أستاذ!

بدا الخوف على سيمائي وأنا أستعجلها:

ــ اسألي يا ستي.

أصرّت على أن تحكي لي حكاية طويلة عن زوجها صـاحب الطاحونة المجاورة للمدرسة، الذي تزوّجها وهي صغيرة في الثانيـة عشرة من عمرها، بينما كان هو في الثالثة والخمسين وكان يذهـب للعمل في السعودية فهو صاحب شيشة هناك، ويعود كل سنتين مـن

تبوك عدة شهور يقضيها في اليمن، ثم يُعاود الرحيـــل. هـــاهي في العشرين، وهو في الستين، يتركني في القرية وحيدة، ويذهب إلى تعز ليتزوّج فتاة صغيرة يقضي معها الشهرين، قبل أن يعود إلى السـعودية من جديد.

ماذا تريد المرأة؟ لم أستطع أن أخمّن "الفتوى" التي تُريدها.

بدت المسألة شائكة وهي تسأل:

ــ أليس لي عليه حق الزوجة؟

ــ بلى يا سيدتي.

فاجأني سؤالها:

ــ ... فماذا أفعل؟

كان عبد الغني قد أقبل بالشاي، وناولها كوباً فأزاحته بعيـــداً بيدها السمراء الرقيقة المخضبة، وبدت عيناها تتألّقان بوهج غريـب، وأخذ صوتها ينساب برقة متناهية، وعطرها الغريـــب يتســـلل إلى أعماق روحي، فيسري الدفء في عروقي .. أنا الذي لم أر وجـــه امرأة منذ سبعة أشهر!

ــ القرية المجاورة أحرقت مدرساً.

وها هي اليمانية ــ التي لا أعرف لها اسماً ــ تفتح صدرهـــا، لتخرج صورةً لزوجها الواقف أمام بيته يحمل "البندقية الآلية" علـــى

كتفه، والخنجر المائل معلّق في "الجنبية"، وبعض أشـــجار اللـــوف والعنب تبدو خضراء ـــ داكنة الخضرة ـــ في خلفية الصورة.

ويبدو زوجها فتيا كما لو كان في الخامسة والثلاثين.

أعرف هذا البيت جيدا، بين الجبل والوادي، أراه كل جمعـــة وأنا في طريقي إلى المسجد الجامع، إنه مجاور لبيت "الشـــيخ علـــي" خطيب المسجد، الذي يُسامرنا كثيراً في هذه الحجرة التي تُجالســـنا فيها اليمانية الحسناء، ويشرح لي فيها أحياناً ما يستعصي عليَّ فهمُـه من "فقه الشافعية"، وهو الزيدي المتسامح الذي يُذكّـــرني بعلمـــاء القرون الهجرية الأولى، في فقهه، وسعة صـــدره، وصـــبره علينـــا، وملبسه.

ماذا يقول الشيخ علي إذا رأى هذه اليمانية خارجةً من عندنا في هذا الصباح الباكر؟!

أغلق عبد الغني الباب بعد هبة ريح مُفاجئة.

واقتربت خطواته مرتعشة حذرة، ووضع يده على كتفـــها، وهو يطلب منها التحمل والصبر، كان يبدو متأثِّراً لحكايتها. ويبـــدو أنها شعرت بخدر لذيذ فأغمضت عينيها.

صرختُ:

ـــ افتح الباب يا عبد الغني!

أنزل عبد الغني يده وهو يحس بالحرج.

نظرت إليّ المرأة شزراً نظرات لبؤة شرسة، وقالت:

ــ لم تُجبني بعدُ .. يا مدرس الدين!

أغمضت عينيَّ، فقالت في تحدٍّ:

ــ أخرجُ إذنْ؟

قلتُ في صلابة:

ــ نعم، الوقت ــ كما ترين ــ ليس ملائماً للفتوى.

وأضفت وصوتي لا يكادُ يُغادر حلقي:

ــ هل تعرفين فقيه القرية .. "الشيخ علي"؟

ــ نعم .. هو جارنا..

وكأنّي أتخلّص من عبءٍ باهظ:

ــ ولماذا لم تسأليه؟

ــ إنه مسافرٌ إلى صنعاء من أسبوعين.

انطفأ البريقُ في عينيها، أخليتُ للقلق مكاناً في تعبيراتي:

ــ إذا رآك أحدٌ في هذا الوقت، يشكُّ فينا وفيك.

خرجت غير عابئة بما أقول، وهي تهز رأسها مستنكرةً لما تسمع، وعبد الغني يطلب منها أن تجيء في منتصف النهار، بعد صلاة الجمعة إذا لم يعُد الشيخ علي من صنعاء!

***

خرجت المرأة منكسرة الخاطر، تحمل نعشها على كتفيْـــــها، لتنطفئ النار التي كانت تنتظرنـــا في الـــوادي، حينمـــا تعـــود إلى طاحونتها مزهوة بإجابة الفتوى، وتربت على بطنها بكفّيْها ..!!

ديرب نجم ٢٦/١٠/١٩٩٠

اليوم الأول

الخميس ١٩ من سبتمبر ١٩٨٥م:

وصلتُ أثناء خروج التلاميذ من المدرسة، في الثانية عشرة ظهراً.

كان مدير المدرسة على وشك إغلاق مكتبه. كان العامل يستحثه على الإسراع بالإغلاق حتى يلحقا صلاة الظهر في المسجد.

فوجئ المدير بالسيارة التي تدخل المدرسة وأنزل منها.

رحب بي .. لاحظت أنه يلبس جلباباً متسخاً، به بقعة حبر كبيرة على جيبه، ويلبس معطفاً داكناً فوقه. قال لي في ابتسامة عذبة، وهو يفتح دفتراً كبيراً أمامه:

ــ اسمك؟

ــ محمد رضوان.

ــ وظيفتك؟

ــ مدرس لغة عربية.

ــ مصري بالتأكيد؟

ــ نعم.

كتب بقلمه الجاف ما أمليته عليه من معلومات في دفتر كبير، وقال مبتسماً، وهو يُعيد السلام عليَّ:

ـــ محمد بن محمد الرقيمي الأهدل مدير المدرسة، وحـــاصل على الماجستير من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. عــدتُ من السعودية منذ خمسة أيام فقط، حيث ناقشت رسالتي.

ـــ في اللغة العربية؟

ـــ لا .. في الشريعة.

أحضر لي أحد الطلاب زجاجة مشروب غازي من البقالــة المواجهة للمدرسة، فشربتها على عجل، وأنا أقول له:

ـــ أين المدرسون المصريون الذين يعملون هنا، والذين حدثني بأمرهم الأستاذ بركات في ذمار؟

المدرسة ملحق بها شقة صغيرة من حجرة واسعة خمسة أمتـار في أربعة، وصالة ضيقة متر في ثلاثة أمتار. ودورة مياه صغيرة، مـتر في متر.

أخذني الرقيمي إلى زملائي الذين وصلوا قبلــي، وتسـلموا عملهم منذ ثلاثة أسابيع، وقال مستبشراً:

ـــ قالوا لنا في الإدارة حينما هاتفناهم صباح أمس إن المدرس الجديد سيكون سوريا. وقال لنا الأستاذ بركات إنـه في الطريـق إليكم. وعرّفوني أنفسهم:

ـــ عاطف من منيا القمح.

ـــ حماد من المنصورة.

ـــ صدقي من كفر الشيخ.

ـــ الدريني من الفيوم.

صافحوني بعدم اكتراث، وفوجئت بثالثهم يقول لي:

ـــ اسمك؟

ـــ محمد رضوان.

ـــ بصراحة يا أستاذ محمد الحجرة قي هذه الشقة لا تحتمــــل أكثر من أربعة، ونحن أربعة.

قال عاطف:

ـــ يمكن أن نستضيفك حتى يأتي زميلاك يوم السبت!

قال حماد في براءة يُحسد عليها:

ـــ ولماذا نستضيفه يومين، ثم ينفصل عنا بعد ذلك مع زميليه؟

قال الدريني في عصبية:

ـــ تأخرنا يا جماعة عن أصحابنا في "الثلوث"، وهم ينتظروننا الآن؟

قال عاطف:

ـــ ألا تحضر معنا يا أستاذ محمد؟

أجبتُ في قرف:

ـــ أنا مسافر منذ أسبوع وأريد أن أنام!

قالوا في صوت واحد:

ـــ هيا بنا.

قال لي عاطف:

ـــ معذرة يا أستاذ محمد أنت بلدياتي .. لكني لا أستطيع أن أفعل شيئاً للمجموعة. ربما بعد عودتي من "الثلوث" أنتقل للسكنى معك، وأتركهم.

أحسستُ أنه يداعبهم أكثر مما يقول الحقيقة.

قال الدريني لعاطف وهو يضربه على ظهره:

ـــ لن نسمح لك!

أخرج أصغرهم سنا "حماد" مفتاحاً وأغلق باب الشقة، وقالوا في صوت واحد:

ـــ لا تقلق علينا إذا تأخّرنا، ربما نبيت عند أصحابنا في "الثلوث"، ولا نحضر إلا مغرب الغد، أو بعد صلاة الجمعة!

لم يعلق الرقيمي رغم وضوح الغضب على ملامحه.

أعطاني مفتاح حجرته. فيها مكتب، وسرير، وغادرني، وهو يدعو لي بطيب الإقامة، قائلاً:

ـــ أقم في حجرتي حتى يوم السبت، وعندما يحضر زميلاك نبحث لكم جميعاً عن حجرة أخرى تُقيمون فيها.

وقال في ود:

ـــ هل تريد مني شيئاً، فإني من قرية أخرى، ولن أجيء هنـــا إلا صباح السبت؟.

هززتُ رأسي.

.. وأعطاني مفتاح الغرفة، وترك بـــاب المدرســـة مفتوحـــاً وخرج.

بعد صلاة الظهر، عاد ليقول:

ـــ نسيت أن أنبهك .. أمام باب المدرسة بقالة بها شيخ طيب اسمه "قايد"، يمكن أن تشتري منه كل شيء بالأجل .. وسيحاسـبك حينما يجيء راتبك.

ـــ آخر الشهر؟

ـــ الرواتب لا تجيء شهريا (ضحـــك) .. تجـــيء حســـب التساهيل كل أربعة شهور .. مرة!

***

تطلّعتُ ـــ عبر النافذة الجنوبية ـــ إلى الجبال المحيطة بقرية "بني علي"، فوجدتُ منحدراً خلف دورة المياه. بينمـــا الجبـــال تحيـــط بالمدرسة من ثلاثة أنحاء. شيء رائع أن أبصر الفلاحين منطلقـــين إلى مزارعهم الصغيرة، والنساء هابطات إلى البئر يملأن جرارهن. هـــأنذا أرى منظر الجبال الشاهقة في ثباتها ودكنتها بتمعن للمـــــرة الأولى. صحيح أنني رأيتُها في الكتب، ومررتُ بها في طريقي من صنعـــاء إلى

ذمار، ومن ذمار إلى الحديدة ـــ مروراً بإب وتعز والجرّاحي. لكنـــني انتهى بي المطاف إلى هذه القرية النائية من قرى الوصاب السافل.

القرية مبنية على مجموعة من التلال المتجاورة، والمدرســـة في أسفلها .. العصر يؤذن الآن .. لا حركة .. لا حياة .. منظر الجبـــل الشاهقة يخنقني .. هأنذا أجلس وحدي .. نظرتُ في الحجرة لم أجد فيها إلا ذلك الدفتر القديم، ونسخة أثرية من كتاب "المســـتطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي" .. قرأتُ ذلك الكتاب عدة مرّات من قبل. لكن ليس أمامي غيره.

فلأخرج لصلاة العصر جماعة، بعدها أشتري خبزاً ومعلبـــات من الشيخ قايد، ولأحاول أن يؤنس "المستطرف" وحدني حتى يعـــود زملائي المدرسون غداً، فأسترشد بهم في التدريس، والطهو، وكيفيـــة إرسال الخطابات ـــ وتلقيها ـــ في هذه القرية المنســـية في مجـــاهيل اليمن.

الرياض ٧/٦/٢٠٠٠

ثلاثة أصوات

١-صبري فرج:

أخيراً وصلتُ إلى مقعدي في الطائرة المتجهـــة إلى جـــدة، في ظهر الخامس من يونيو ٢٠٠٠. وجدتُ راكبةً خليجية بجـــواري، استأذنتني أن تجلس بجوار الشباك، فهي قد تعوّدت على أن تُســـلي نفسها برؤية الحياة من نافذة طائرة.

تمسك في يديها كتاب الجاحظ "البيان والتبيين"، ربمـــا تعـــد رسالة جامعية في الأدب عن الجاحظ، ربما لاحظت استغرابي مـــن وجود الجاحظ معها على الطائرة، ففتحت حقيبة يدها ـــ الكبـــيرة نوعاً ما، والتي تشبه منفاخاً ـــ .. همت بوضع الكتاب في الحقيبـــة، فسقطت بطاقة من الكتاب بين رجليها.

حاولت أن تحضر البطاقة فلم تستطع.

فكّرتُ أن أساعدها، ولكن الكتاب بين ساقيها، وقد يُعرِّضني إحضار البطاقة إلى شيء محرج!

كان عليها أن تفك الحزام، والطائرة لما تُقلع بعد، وتســـتنقذ البطاقة.

نظرتُ إلى أسفل، وهي ترفع البطاقة. كان مكتوباً فيها بالقلم الجاف، بخط كبير:

البيان والتبيين ج: ١، ص: ١٤٩:

وقال بشار:

أنس غرائر ما هممن بريبـــــةٍ

كظباء مكة صيدهن حَــرامُ

يحسبن من أنس الحديث زوانيا

ويصدهن عن الخنا الإسْــلامُ

قلتُ لها، وأنا أتوقّع ألا تردْ عليَّ:

ــ بيتان جميلان لبشار بن برد، يعدلان ديواناً من شعر هـــذه الأيام.

ــ أشكرك.

قلتُ ــ وأنا أطمع أن تُشاركني الحوار حتى نقطع الطريق مــا بين القاهرة وجدة:

ــ كنتُ أحبُّ الشعر وأنا طالب في المرحلة الثانويـــة، ولمــا التحقتُ بكلية التجارة قرأتُ ديوانه في مكتبة الجامعة.

أشارت برأسها دون أن تنبس!

قلتُ لنفسي:

ــ ربما لا تُريد الكلام .. بعض الناس يعدون رحلة الطـــائرة فترة للتأمل، والاستعداد لأعباء ما بعد الوصول.

لكني لا أدري أي خاطر مجنون دعاني، فـأصررتُ علــى أن أُحاورها:

ـــ سعودية؟

ـــ لا .. كويتية.

ـــ لماذا إذن متجهة إلى جدة؟

ـــ سأقابل أمي هناك حيث نؤدي العمرة، ثم نعود معـــاً إلى الكويت.

ـــ لماذا في هذا الحر؟

ـــ نسيت أننا خليجيون، تشرّبت مسامنا الحر والرطوبة!

استدركتُ وكأني نسي شيئا:

ـــ لماذا الجاحظ .. هل تعدين رسالة جامعية عنه؟

ـــ أنا طبيبة نفسية .. كنتُ أزور أخوالي في مصـــر، وقــد تعودتُ أن آخذ كتاباً معي للجاحظ كلما سافرت.

صمتُّ فأضافت:

ـــ أخوالي من المنوفية .. من تلا ..

قلتُ مجاملاً:

ـــ أحسن ناس!

أخرجت الكتاب من حقيبتها، وكأنها تبحث عـــن صفحـــة بعينها.. استغرقت في التأمل، بينما اســـتغرقتُ في تـــأمل وجـــوه

المسافرين وقراءة صحيفة يومية وزّعتها المضيفة على الركاب، تحمل أخباراً سمعتها مراراً وتكراراً في القنوات الفضائية في اليومين الفائتين .. عن الحرب بين أثيوبيا وأريتريا .. وزيارة أولبرايت للشرق الأوسط .. واحتفالات حزب الله بانسحاب إسرائيل من الشريط اللبناني الجنوبي المحتل .. واحتفال اليمن بمرور عشرة أعوام على الوحدة بين شطري الوطن .. و .. و .. لم أعد أقرأ الصحف، فقد أجهد عينيَّ الحرُّ والحاسوب!

أقلعت الطائرة.

نظرتُ إلى جارتي قمحية اللون، وقد أغلقت عينيها، ووضعت ذراعيها على صدرها المكتنز الصغير، وانسدل شعرها الناعم الطويل على كتفيها. فتخيَّلتُها زوجتي!

لماذا هي خليجية؟ كان يمكن أن تولد في أي مكان آخر .. ولكنها هناك بلا اختيار ولدت .. تعرف ذلك بالطبع. عرفتُ أنّ اسمها "عمشاء" ـــ لا أدري كيف وافقت أمُّها المصرية على هذا الاسم؟ ـــ، مع أن عينيها سوداوان واسعتان ساحرتان.

قالت لي إنها كانت دائماً تحلم وهي صغيرة، أنها جالسة على ضفة نهر النيل .. (لماذا نهر النيل بالذات؟!) تحت شجرة جميز ضخمة، مع فتيات فاتنات ضامرات، وأنها كانت تتسلق أشجار

الجميز والتوت، وتجري — في الحلم — حتى تنهد قواها وتنام في حجر أمها.

هل حكت لها أمها ذلك وهي طفلة؟

هاهي تعود إلى مدينتها الصحراوية.

مدينة عمياء إلا إذا عكس الماء صورها .. حينئذ تشاطر الماء صفاءه وتدفقه!

لا أدري لماذا تصورتها عارية .. أخرجت ثديين ناضجين من تحت بلوزها .. وبدا جسمها كالنغم السماوي، وأمها وراءها — بجوار شباك مقابل — تنظر إليها بإعجاب وشغف .. فقد أخرجت الشيطانة تفاحتين من حديقة الرخام ..!

عندما يغدو كل ما فيك جسدا .. وعند ما يهدر الدم في عروقك .. وتتحرق أجفانك وأنت تطالع اللوحة ثلاثية الأبعاد .. وتنتظر لحظات السعادة أن تلقي سحابات حزنك تحت رجليك .. أو خلف ظهرك .. لن تكفيك ليلة أرق واحدة.

تقززت مما فكرت فيه .. الآلام كثيرة .. فكيف حدثتني الشياطين بحديث الإفك؟ زوجتي مريضة، وصبري — الذي يحمل اسمي، وابني الوحيد — رسب العام الماضي في كلية التجارة الخاصة، ومطلوب مني أن أدفع هذا العام أيضا أربعة آلاف من الجنيهات (مرتب شهرين في السعودية)، ويحتاج جهاز "ميرال" أخته إلى عشرة

آلاف أخرى حتى تتزوّج في الصيف المقبل من ابن شقيقتي المـــهندس "منصور"، وأختي "الست" "الغنية، الطمّاعة" لا تُريد أن تســـهم في جهاز ابنها بمليم واحد!.

لا بد أن "أم عمشاء" جميلة .. فلماذا بـــاعت نفســـها؟ أو بالأحرى لماذا باعتها أسرتُها؟ .. هل هو الفقر؟ ولماذا وافقت النعجةُ أن تسير إلى الجزّار، بدون أدنى مُقاومة؟ .. ولماذا أضطـــر للعمـــل محاسباً فترتين بمبلغ لا يزيد كثيراً على ضعف راتـــبي في مصـــر؟ .. ولماذا أترك عملي محاسباً أول بشركة مقاولات شهيرة لأعمل مندوباً للمبيعات لكفيل متجهم في البلد الحرام لا يفتح عينيه في الصبـاح إلا على عيوبنا، وتنبيهنا إلى النقص الذي يتصوره فينا.

فتحتُ عيني، وجدتُ المضيفة تعطيني منديلاً معطراً.

أخرجتُ رواية "الأسرى يقيمون المتاريس" لفؤاد حجازي ـــ التي أحضرتها معي من مصر ـــ لأقرأ صفحة من صفحات الحـزن في الذكرى الثالثة والثلاثين لهزيمة يونيو ..

هل تكفي قصة واحدة لإطفاء جذوة الحزن الذي يشـــتعل في صدورنا بعد ما شاهدناه في التلفاز وقرأناه في الصحف عما فعلتـــه إسرائيل بأسرانا في ٥٦ و٦٧؟!

المضيفة تعلن عن وصول الطائرة إلى مطار الملك عبد العزيـــز الدولي بجدة.

هرج .. ومرج .. وتدافع إلى باب الطائرة.

نظرتُ إلى المسافرين فوجدتهم تشغلهم أشياؤهم الصغيرة .. مثل تأخُّر حقيبة .. أو محاولة طمأنة الأهل في الهاتف الجوّال.

كانت الراكبة التي أمامي تحاول ـــ في عصبية ـــ أن تتصل بالأسرة، ربما! ، أو بقريب .. بينما كانت "عمشاء" رابطة الجأش، وغير متعجلة! .. لله درها .. على أي شيء تتعجّل؟!!

خارج المطار وجدتُ نفسي في سيارة أجرة واحدة مع "عمشاء"، أركب بجوار السائق، الذي ما إن غادرنا جدة وضمنا الطريق المؤدي إلى مكة، حتى استأذننا في فتح المسجل، ليُرافقنا صوت فريد الأطرش بصوته الحزين يغني "أحبابنا يا عين"، مما جعلني أسأل السائق، وكنت أظنه باكستانيا:

ـــ أنت مصري؟!

-لا .. تونسي.

كانت "عمشاء" تسألني عن تلا، وهل أعرف أحداً فيها، ولماذا يزوّج المصريون بناتهم للغرباء، وأنا أهز رأسي وأحاول أن أتكلم، لكنها تسألني ـــ مرة ثانية ـــ عن رأيي في أبيات بشار! وتأخذ عنواني في مكة، ورقم هاتفي، فربما تتصل بي، وتزورني هي وأمها إن اتسع الوقت .. ألستُ خالها؟

كنتُ أتثاءب في تثاقل، وأشعر أن قدميَّ لا تحملاني إلى الطابق الثاني وأنا أهبط من السيارة أمام البيت، وأمشي أولى خطـــواتي في هذا الحر الخانق المشبع بالرطوبة، رغم أن الساعة تشير إلى الحاديـــة عشرة والنصف مساءً!

٢-عمشاء الناصر:

إلى كرسي بجوار النّافذة ـــ في الطائرة التي تُغـــادر القـــاهرة متجهة إلى جدة ـــ انتهى بي المطاف، بعد أن انتهت زيارتي لأخوالي في تلا .. هذه الزيارة التي تتكرر مرتين ـــ على الأقل ـــ في السنة.

دهشتي كانت كبيرةً لأن أحداً من أخوالي أو أبناء أخـــوالي لم يُصاحبني إلى مطار القاهرة الدولي. استأجروا لي سيّارة أجرة، نقدتُ سائقها مائة جنيه، ثم أعطيته عشرين جنيهاً أخرى حينما نزلتُ مـــن السيارة أمام باب الدخول.

منذ عشرة أيام، فضّلت أمي أن تتجه إلى مكة، وتبقى فيـــها حتى أعود من مصر، فنؤدّي العمرة معاً، ثم نعود إلى الكويت.

لا أدري لماذا لم تصحبني إلى مصر لترى إخوتها الثلاثة؟

بعد وفاة "سليمان" أخي، لم تعد تنعم بسعادة حقيقيـــة، أو أُنس بأهل أو أصحاب!

لم تر أشقّاءها منذ ثلاثة أعوام. وتقول إنها غاضبة منهم لأنهم لا يهاتفونها في عيد أو مناسبة، ولا يسألون عنها، ونسوْا أن لهم أختاً في الكويت!.

جلستُ بجوار رجل طيب ــ يبدو في عمر والدتي .. على مشارف الخمسين ــ .. طلبتُ منه أن يُعيرني مقعده بجوار النافذة فلم يُمانع. استغرب كثيراً أن تحمل فتاةٌ معها كتاباً للجاحظ، لا أدري لماذا كذبتُ عليه وقلتُ إنني طبيبة نفسية، بينما أنا محاضرة بكلية الآداب جامعة الكويت، وأعد دراسة عن "الملامح السردية في أدب الجاحظ" .. ربما كان يطلب مني شرح العنوان، فتجنبت السير معه في هذا الطريق، ونحّيتُ الكتاب جانباً.

حينما علم أن أمي مصرية استغرب كثيراً، لعله شك أن والدي كان من الأثرياء العرب المعمرين، فجاء إلى مصر واشترى عروساً جميلة منها ــ كما فعل بعض العرب في بلدي وبلاد أخرى ــ ولم أشأ أن أحدثه أن أبي كان قائداً للوحدة الكويتية التي شاركت في حرب ١٩٧٣م، وأنه أحب أمي وهو يتعلم في الكلية الحربية في مصر، وتزوجها منذ ثلاثين سنة، ورزق الله منها ولدين: سليمان، وعمشاء.

يتعجّب من اسمي، وأنا أراه اسماً جميلاً أحبه أبي، لأنه كان اسم والدته!

لم أقل له إن أمي دكتورة في علم الاجتماع، وأنها أستاذة مصرية مرموقة، مازالت تحتفظ بجنسيتها. سافرت إلى كثير من البلاد الأوربية، وألقت فيها محاضرات، وشاركت في ندوات وحلقات بحث

لم أقل له إن سليمان أخي — الطبيب النفسي — مات في حادثة طائرة شراعية منذ سنتين، فلحقه أبي منذ عام ونصف، وارتدت أمي السواد، ومعظم وقتها تقضيه معتمرة وزائرة بين مكة والمدينة، وأنها تعيش في المدينة أوقاتاً أكثر من تلك التي تُمضيها في الكويت!

رغم أنه في الخمسين حاول أن يحتك بي .. ترك ساقه تلتصق بساقي، فأبعدتُ ساقي عنه، دون أن أُشعره بحرج. وجهه فيه ملامح كثيرة من وجه أبي، ولاحظتُ حينما نزلتُ من المطار، أنه يمشي مندفعاً إلى الأمام مع انحناءة صغيرة تُشبه انحناء المرحوم سليمان.

سألته:

إلى أين أنت ذاهب؟

أجاب:

— العزيزية، في مكة المكرمة.

قلتُ له:

ـــ يمكنك أن تأتي معي في سيارة الأجرة، ضيفاً عليَّ، فأنـــا متجهة إلى الفندق الذي تقيم فيه والدتي بمكة.

وأركبتُه بجوار السائق، وركبتُ في المقعد الخلفي، وأغمضـــتُ عينيَّ!

٣-فاطمة القرشي:

عادت "عمشاء" من القاهرة، ولم تشف غليلي!

مازال أخوتي الثلاثة يطمعون فيما أرسله، ويتركون ابنـــتي ـــ الوحيدة ـــ تذهب وحدها إلى مطار القاهرة، وكأن أمها مقطوعـــة من شجرة، وليست من "عائلة محترمة" يسد عـــدد أفرادهـــا عـــين الشمس!

حدثتني عن رجل جاء معها من القاهرة، اسمه صبري فـــرج، يسكن في العزيزية، بملامح أبيها "محمد النـــاصر"، وخُطـــا أخيـــها سليمان الناصر!

هل يسعدني الزمن فأراه غداً وأنا أستريحُ مـــن العمـــرة ـــ كعادتي ـــ خلف مقام إبراهيم قبل أن أعود إلى الكويـــت لأجـــتر أحزاني في فيافي وحدتي المهلكة؟!

الرياض ٥/٦/٢٠٠٠م

الحصار

(١)

يبحث «مجدي» عن نسمة نقية لرئته التي حاصرها دخان السجائر، يبحث وهو واقف في مدخل مطار القاهرة عن نوافذ لم يلوثها غاز العوادم، ينظر خلفه إلى مسافات مترعة بالشوق، ومساحات في قلبه مترعة بالحزن، وذكريات ملؤها لوعة الحنين. كان على الطريق يلحظ أن الغازات تنشر أجنحتها الضبابية فوق المزارع والطرق، والقرى .. طفرت دمعة من عينيه، إذ تذكّر أن الجو مليء بعوادم السيارات، وعوادم الخطب السياسية الملتهبة المنبعثة في موسم انتخابات مجلس الشعب الجديد.

ها قد عثرت على حفرة هادئة، محاطة بالخضرة وزهرات النرجس الأصفر، وستدفن فيها نفسك .. أو تدفن أحزانك .. سيان! .. لماذا لا تكف عن الشكوى؟ ماذا تريد بهذا الصراخ؟ لم يعد الفرق مثيراً إلا للنفوس المجبولة على الصراخ والكذب، من السادة الكبار الجالسين على الكراسي الوثيرة إلى الفلاحين والبنائين الذين يشيدون الزرائب للحيوانات الهزيلة في الأرض المليئة بالطحالب، والجثث المسكونة بهاجس الخوف، وانتظار الموت!

يذكر آخر لقاء له مع أبي خديجة .. «مصطفى مبروك» المتشبث بأوتاد الكلمات الضالة والرؤى القديمة لمحدث نعمة:

ــ ماذا تريد مني يا سيدي؟

كأنه يتجاهل ما أريده .. أو لا يعرفني:

ــ أريد خطبة خديجة!

ــ ابن بيتك أولاً، ثم تعال واخطب خديجة!

ــ إنني أملك شقة ورثتها عن أبي في «بيت القاضي».

ــ هذا بيت تستوطنه العفاريت، ثم إن ابنتي لن تقيم في القاهرة .. لن تُقيم إلا في العصايد.

هذا رجل مخرف يسير خلف الأوهام، وبنته ليست «ديانا» أميرة ويلز؟. مستحيل أن أسير خلفك أيها المرابي القديم الذي تأكل مال الله!

(٢)

قلت:

سأسير خلف خديجة في الطرق التي تتبعها، سأظل ساكناً الطرق التي تسير فيها إلى المصرف الذي تعمل فيه. حين أتأمل الطرق التي تسلكها لا أجد من البنات الأبكار من تشيهها. بحثت عن بقعة مشمسة، وهواء طلق، فلم أجدهما إلا تحت سماء خديجة.

هو ذا قدر الإنسان أن تفسد خطواته حين يصمم على أن يفعل «معروفاً» في ابنة خالته. عاجز طوال عمري عن عمل شيء مثمر. يا أيها الأوغاد حاصرتموني حتى الملال!

ها هم أقرباؤك جميعاً عاجزون عن أن يمنحوك شيئاً.

ـــ أرشدني يا خليل .. عفواً، ماذا قال لك «أبو المال الحرام»؟

ـــ لقد رأيته أمس يفرش حصيراً أمام البيت، ويجلس مع الصيدلي «عدنان» .. رميت عليهم السلام، فرد «عدنان» من طرف أنفه، و لم يرد «أبو المال الحرام»؟!

ـــ لماذا؟

ـــ يعرف أنك أخي، وحبيبي، وصديقي، وابن خالتي .. (يبلع ريقه) خديجة أيضاً بنت خالتنا، لكني لا أكلمها ولا أراها إلا من خلف حجابها، عبر زجاج النافذة العريضة ـــ في الدور الثاني ـــ كلما خرجت من البيت متوجهاً إلى المدرسة.

ـــ إذن فمشكلتي لن تُحل؟!

ـــ أبوها غليظ .. جاف يا عزيزي. كيف أذهب إليه وهو يكره كل أقارب المرحومة «عنايات» خالتنا الراحلة.

ـــ أستطيع أن آخذها إلى بيت القاضي في القاهرة، وأتزوجها.

ـــ لن تستطيع أن تدخل «العصايد» مرة ثانية!

ـــ لا أريد أن أدخل هذه القرية!

ـــ وماذا تفعل بأخيك العاجز وأولاده الثلاثة؟

ـــ يتكفّل بهم خالقهم.

كانا قد وصلا إلى مفترق الطريق. أخرج سيجارة أجنبية منجيبه وأشعلها .. أضاف خليل في آلية، وكأنه يتخلص من الكلمات:

ـــ لا تحزن يا مجدي .. ستكون خديجة من نصيبك .. إنها ابنة خالتك «عنايات».

ـــ أنت أيضاً يا عزيزي خليل لا تُشاركني مأساتي، وكم شاركتُك أفراحك أيها الجبان، وسيكون من نصيبك أن تفرح بي عندما أتزوّج.

سأذهب لأبيها الليلة.

سأقول له: «لا أريد مالك أيها المرابي .. سآخذها وأذهب إلى «بيت القاضي». وابق أنت أيها الجرذ الأصفر الحقير مع زوجتك البيضاء الجافة على مقاعدكم المهترئة إلى الأبد، وانعما بكراهيتكما لي».

لم أر وجه خديجة منذ ثلاثة أهلة .. ذهبت إلى بور سعيد أعمل في أعمال الحفر والبناء ـــ وأنا الحاصل على بكالوريوس

التجارة — وأولاد الأفاعي يعملون، وزمانهم يقبل وزماني يمـــوت. أولاد أخيك يصهل حبهم في داخلك بعد أن تتنفّس هواء الشـــاعر الثقيل، ثم تكبح جماح غضبك على «أبو المال الحرام»!

لماذا لا يُتابع خليل مساعيه، إذ ما جدوى الشتائم وقلبُ أبيها كالزجاج الغليظ الذي لا تنفذ منه الرصاصة .. رصاصـــة حبـــك الصادق؟ .. ماذا ينفع الغضب، وأنت تطلب البسمة النقية من المرابي الذي يجلس على تل من مال حرام؟!

قالت لك أختك «سناء» إن النظرة في عيني خديجـــة مثقلـــة بالحزن، وإن زهورها تذبل، وصوتها يخفت — لكأنهـــا مريضـــة — كالقمر تغيب ثم تظهر، يكاد شعاعها الأخير ينطفئ، وهـــي تلـــوذ بالنوافذ والجدران هرباً من دفقات الغاز الأسود في البيت، تطلقـــه زوجة أبيها، كما تطلقه في الشارع عوادم سيارة أبيها البالية، الـــتي ينطبق بها إلى الزقازيق مرتين أسبوعيا بسرعة عشرة أميال في الساعة.

لم تستطع «سناء» أن تمنحني بصيصاً من ضوء.

«أبو المال الحرام» يركض بكلية تالفة وأخرى سليمة، ويأخذ زوجته الصفراء في حضنه، وهما يعبران البحار والمحيطات لا يعبـــآن بالسابح الصغير.

كم ساعده أبي في بداية حياته ــ حينما كانت خالتي موجودة ــ لماذا لم أعد أسمع الكلمات العذبة تصوغها الألسن الصادقة، حتى من أمي «خالة خديجة»؟!

(٣)

تساءلت موظفة الاستقبال ببسمة مصطنعة (أو قل ببسمة متهكمة):

ــ هل أنت متخصص في إدارة الأعمال؟

ــ نعم.

ــ تقديرك؟

ــ جيد جدا.

ــ لماذا لم تُعيَّن معيداً؟

ــ الكليات لم تعد تعين معيدين.

ــ ترتيبك على الكلية؟

ــ السادس على دفعة ١٩٨٢ من «تجارة عين شمس».

ــ ولماذا لم تعمل في مصر طوال خمسة عشر عاماً؟

ــ الفرص ضيقة .. أشبه بثقب الإبرة!

ــ هل تُجيد اللغة الإنجليزية؟

ــ نعم.

(أعطته استبانة ليعبئها)

(منظر تكرر خمسين مرة في البحث عن فرصة عمل بـــالبلاد العربية).

(٤)

في استراليا يستطيع أن يبدأ من جديد .. الهدوء في المكتـــب يبعث على الضيق.

سأل:

ــ هل سيتأخّر المدير؟

أشارت موظفة الاستقبال إلى الحجرة البعيدة في آخر الممشى، قالت:

ــ إنه يُجري بعض المقابلات مع مهندسين زراعيين يريـــدون السفر إلى استراليا.

قال بصوت هادئ مثقل بالحزن:

ــ أريد استراليا! .. بعيداً .. حيث أنسى خديجة!

قالت الموظفة:

ــ جئت بعد الأوان!

أحس بالحزن يُثقلُ صدره، لكنَّ الأمل عاوده من جديد، حين رآها تكلم شخصاً آخر.

خليط من رجال صامتين ومكتئبين، وجوههم مهمومـــــة في تأمل وحيرة، الإعلانات التي تمثلها فاتنات التليفزيـــون في الجـــهاز

الضخم ذي الثلاثين بوصة لا يشد أعينهم، ولا ضجيجه يستهوي آذانهم .. عجوز روسية جدائلها بيضاء تبحث في بقايا صناديق القمامة عن غذاء .. وزعيم عربي يصرخ «بضرورة الحل السلمي مع إسرائيل، وعبثية الحرب في عصر الهيمنة الأمريكية» .. وخبير يتكلم عن «التحضر واللا عنف» .. والدخان يتصاعد من جدائل الراقصات ليضلل المصابيح في شوارع القاهرة!

(٥)

قال خليل وهو يضع مرفقيه على القائم الحديدي في مدخل مطار القاهرة: أنا أعرف حقيقة سفرك، وما فعله فيك «أبو المال الحرام» بشكلٍ خاص (بلع ريقه) .. أنت تهرب يا عزيزي!
قال له الأستاذ عبد الغفور مدرس الفلسفة — وهو يُصافحه في هذا الصباح المعتم:

«سيكون جيلكم من اليهود الجدد .. لستم مثلنا .. نحن عشنا في عهد هادئ رغم حروبه المتعددة وهزائمه الكثيرة .. خروجكم متعب لنا .. ممزق لمشاعرنا .. وكلامي لن يفيدك — الآن — بشيء، فقد حزمت حقائبك! .. ولن تحل مشكلتك بالسفر أو الهروب!».

— لم يعد هناك من أمل يا أستاذ عبد الغفور!

...

كانت أمه تتشنج، وتطلب منه أن يرسل خطاباً حينما يصــل، وأولاد أخيه الصغار تركوا ألعابهم، ووزير الداخلية يُلقي بياناً عـــن نتائج الجولة الثانية من انتخابات مجلس الشعب التي أدارها القضاء في حيدة وفي نزاهة .. وكان خليل يقول إنه لن يستطيع أن ينعم بالحياة و«مجدي» يعيش بعيداً في قارة أخرى!

«يعيش؟!!».

أود أن أعيش معك يا خليل .. لكن كل كلماتك الطيبة لــن تبني لي بيتاً في قريتي، ولن تُعيد لي خديجة الضائعة الساكتة!

وأنا لا أذهب لأستراليا لأبني لي بيتاً في «العصـــايد»، وإنمـــا لأكون مواطناً استراليا!

الرياض ٢٨/١٠/٢٠٠٠م

صباح العيد

(١)

خرجتُ من حجرتي التي تقبع في ممر طويل مظلـــم، مُلحــق بتلك المدرسة النائية في جبل «النخلة الحمراء» .. أمام الباب مطلــع وعر، تمرُّ منه السيارات القادمة من صنعاء، والمتجهـــة إلى مدينـــة «الأحد».

الوقتُ أمامي قصير لألحق صلاة العيد .. لمـــاذا تـــأخرتُ في النوم؟ .. لم أنم إلا قبيل الفجر بنصف ساعة أو أقل قليـــلاً .. بـــاق عشرُ دقائق على الصلاة .. عليَّ أن أصل إلى الساحة التي ســيصلون فيها صلاة العيد.

نظرتُ أمامي فوجدت الأستاذ «ســـيد ريحـــان» المـــدرس بالمدرسة الابتدائية المُجاورة يمشي مُصطحباً ابنه الأكبر «مصطفـــى» ذي التسعة أعوام .. أما حلمي ذي الأعوام الخمسة فيبدو أنه مـــلزال نائماً .. فعل خيراً فالدنيا برد، ودرجة الحرارة تنخفض عن عشـــــر درجات!

تلفت «سيد ريحان» إلى الخلف فأبصرني، فانتظر لألحقـــه .. شدَّ على يدي مهنئاً بالعيد السعيد، راجياً أن يُطيل الله عمرينا لنكون

العام المقبل «على جبل عرفات معا» .. وعانقني، فشممتُ عطـــراً رخيصاً يفوح من طيات ثيابه.

ثياب ريحان مكوية، وشعره لامع، وفرحة العيد ترقـــص في عيني طفله «مصطفى».

لاحظت سيد ريحان وهو يُحملـــق في وجـــوه اليمـــانيين، ويهمس:

ــ رباه! .. كم هم مختلفون اليوم عن الأيام السابقة!

مشينا صامتين ــ أنا وسيد ــ والولد يقفز وكأنه عصفور!

...

جلستُ بجوار سيد ريحان على حشـــيش أخضـــر، في أرض مستوية، تتخللها بعض أشجار الخوخ .. تأكّدت أني أيضاً ألبـــس بنطلوناً وقميصاً جديدين، اشتريتهما منذ أسبوع من «صنعاء»، لكن بلا مكواة تمر عليهما .. فأين أجد الكوّاء في هذا المكان النائي؟!!

(٢)

هاأنذا أجلس مطرقاً في مصلّى العيد، بكل مشاعري أســتمع إلى «الشيخ محمد الأعرج»، وهو يُلقي خطبة العيـــد، عـــن معـــنى التضحية والفداء. والشيخ محمد مدير المدرسة الابتدائية المجاورة، وقد أخبرني منذ عدة أسابيع أنه درس في السعودية ــ وإن كان لم يُتـــم

دراسته الجامعية ـــ ولذا فهو يفهم الفقه السني فهماً جيداً، وإن كان يُخطئ في اللغة ـــ في كل خطبة ـــ كلمات قليلة!

(٣)

هاهم اليمانيون يتعانقون في مودّة وفي حرارة بعد انتهاء الإمام من خطبته القصيرة .. وضحكات الإمام الصافية العاليـــة تحتـــوي المكان.

نظرت إلى اليمانيين وهم يسلمون عليَّ بإعزاز، فوضعتُ على فمي ابتسامة عريضة، لكن لم يقل لي «سيد ريحان» هـــل كـــانت حقيقية أم باهتة؟

عانقني بعضُ طلابي، وعانقني بعضُ من لهم أولاد يدرســـون عندنا في المدرسة الثانوية ..

(٤)

في المدرسة الثانوية ثلاثة أساتذة فقط:

عبد الغني حسنين: مدرس اللغة العربية والتربية الإســـلامية، وقد ذهب ليلة الأمس إلى قرية «الخرابة» المُجاورة ليقضي يومين من أيام العيد مع ابن قريته «فريد»، وقد ألحّ على أن أذهب معه (فزوجة «فريد» ابنة خالته، وليست غريبة عليه) .. ولكنني لم أستجب!!

وعلي عوض الكريم: سوداني، يدرس اللغة الإنجليزية والمواد الاجتماعية، وقد ذهب منذ يوم الخميس — من ثلاثة أيام — إلى «صنعاء» ليُمضي العيد مع أبناء بلده، (وكان قد قضى عيد الفطر في ذمار) وعرضَ عليَّ أن أذهب معه إلى صنعاء، ولكني قلتُ له:

— أنت ستذهب إلى أقاربك وأصدقائك .. وأنا ماذا سأفعل؟!

ضحك ضحكة عذبةً أنارت وجهه الأسمر:

— أنت أيضاً قريب وصديق.

ولكنني لم أستجب!!

وأنا .. مدرس الرياضيات والعلوم!

...

أما المدرسة الابتدائية المُجاورة لمدرستنا فلها مدرس واحد هو «سيد ريحان»، وقد أعدّت له القرية سكناً مؤثثاً، مكونا من حجرة واحدة، يسكنُ فيه هو وزوجته الجميلة النحيفة البيضاء وولداه مصطفى وحلمي.

اليمنيات يزرن زوجته عصر كل يوم، فلا يجد مفرا من أن يصطحب ابنه الكبير «مصطفى»، ويأتي ليجلس معنا، ويُخفف عنا وحدتنا بأحاديثه الجميلة، وقصصه المسلية!

هل يعود من المُصلّى ليجلس معي، ويُخفف عني وحـــدتي، ويذكرني بأيّام الأعياد في مصر!

(٥)

صحبني «سيد ريحان» وابنه في طريق العودة. وقبل خطــوات من البيت استأذن مني .. في سرعة ولهوجة .. لأنه مدعو عند شــيخ القرية ــ هو وزوجته وطفلاه ــ ورجعتُ إلى حجرتي عابراً الصالــة المُظلمة.

أوارب الشباك قليـــلاً .. لأسمــع ضحكــات الأطفـــال .. وصياحهم .. وصفاراتهم.

أخرجتُ بعض الحلوى التي اشتريتُها أمسِ من البقال الوحيــد في القرية .. ليست جيدة، لكنها خير من لا شيء!

تذكّرتُ أبنائي وزوجتي وأخواتي الأربع (وأنا الأخ الوحيـــد الذي يدخل عليهن) فأحسستُ بغصة في حلقي! .. مددتُ يــــدي لأشرب كوب الشاي البارد الذي عملتُه قبيل الفجــر ونمــتُ، ولم أشربه!

أُحسُّ ألماً شديداً في ساقي اليُسرى.

البردُ شديد .. فلأغلق الشباك، ولأتمدد على سريري، ولألبس جورباً سميكاً عساهُ يخفف عن ساقي بعضَ ألمها.

.. يبدو أنني لن أخرج من البيت ــ اليوم أو غداً ــ حتى يعود عبد الغني من «الخرابة»!

حسناً .. لقد اشتريت أمس من البقالة ما يكفيني يومين!

الرياض ٢٠٠١/١/٢٣م.

ليلة الجمعة

مع مجيء العاشرة من مساء ليلة الجمعة الأخيرة من يناير لذلك العام، وكانت تُوافق الليلة الثانية من شهر رمضان المعظم، بدأت عيون القرية تغفو، وأخذت شوارعها الضيقة المبتلة برذاذ المطر تخلو من الحركة، بدت شبه مقفرة إلا من ضوء هناك ينبعث من مقهى فيه زبون ثقيل الدم، يُردِّد خلف المذياع — بصوته القبيح — أغنية عبد المطلب «أهلاً رمضان»، أو سيارة تركن على جنب، أو عدة كلاب سود تمشي الهوينى وكأنها ضلت طريقها، فدخلت الشارع — المطل على الترعة التي تخترق القرية — عن غير قصد، فأخذت تبحث عن مخرج.

كان شتاء بارداً، بلا أمطارٍ تذكر، اللهم إلا تلك الأمطار المتقطعة التي نزلت على القرية مع سحور الليلة الأولى من رمضان، وهاهي القرية تنوء تحت ظل يناير الثقيل، وتتعايش مع برده السمج كأثقل شهر استقبلته خلال السنوات العشر السابقة.

ورغم أن هذه القرية الصغيرة لم تكن بعيدة عن عاصمة المحافظة إلا بعدة مئات من الأمتار، فإنها ظلت بمنأى عن التحديث والتحضر الذي أصاب العاصمة، حينما افتُتحت فيها جامعة إقليمية منذ عشرة أعوام، وما تبع ذلك من إنشاء مدن جامعية للطلاب،

ومستشفيات، ومكتبات، ومجيء طلاب من جميع أنحاء الدولة للدراسة في الجامعة.

هاهي القرية توشك أن تُصبح حيا ــ قليل التحضر على أطراف العاصمة، وهاهم بعض الأثرياء يُقيمون عمائر سكنية للطلاب العرب والأفريقيين بعد أن ضاقت المدينة الجامعية عن استيعابهم، وهاهو المقهى الوحيد يستقبل زبائنه من الطلاب حتى الثانية من منتصف الليل. وصاحبه «محمد الشامي» يديره طوال النهار حتى العاشرة مساءً، وتسهر ابنته «منال» وابنه «وليد» حتى الثانية صباحاً، ليبيعا للزبائن الواقفين ــ من الطلاب الوافدين ــ السجائر، والجبن، والمعلبات، بعد أن كاد يتحول المقهى إلى «مائدة» بسبب مُطاردة الشرطة للمقهى، ومخافتها من أن يتحول مكاناً لاجتماعات الشباب من أفراد الجماعات الإسلامية المتشددة.

غادر «محسن» و«محيي الدين» السكن، الذي هو عبارة عن «فيلا» صغيرة في الطرف الجنوبي الشرقي من القرية، والذي يتكون من طابقين، ويمتلكه أستاذ جامعي من أبناء تلك القرية، يقيم في القاهرة.

قال «محسن» وقد شعر برذاذ يصيب وجهه، مُشيراً بسبابته إلى السماء:

ــ الله يبعث الخير ..!

انتفض «محيي الدين» كأن عقرباً لدغه:

ـــ .. من أين سيأتي هذا الخير؟!

كانا يسيران في الشارع المترب الطويل الشرقي الـــذي يمتـــد مستقيماً حتى بداية القرية من ناحية العاصمة التي تحضـــن الجامعـــة المتاخمة.

الرذاذ الذي ذكر «محسن» بالخير انقطع الآن، والريح الخفيفـة الباردة التي لفحت وجهه ذكرته (بمنال) التي مـــازالت ســـاهرة في المقهى، كي تستل النقود القليلة من جيوب الطلاب المغتربين، لأبيها الذي يصرف معظمها على «كيفه» الذي يسعد به طوال الســـنة، بينما أسرته الصغيرة لم يتبدّل حالها، و لم تصعد ـــ مع من صعد ممّـــن ذهبوا إلى ليبيا والعراق ـــ إلى أعلى!

تلك الليلة الباردة ذكرت «محيي الدين» بالأهل في الســودان، ولا يدري لماذا لم يسكن في شقة في العاصمة، وجاء إلى هذه القرية، التي لا يعرف فيها أحداً إلا وجه «منال» الليلي بعد العاشرة.

حاول أن يدرس في بريطانيا، ولكنه لم يوفق.

كان يُريد أن يدرس الأدب الإنجليزي، ولكن انتهت به أقداره إلى كلية الزراعة بالزقازيق.

ثرثرة صديقه العراقي «محسن» لم تُعطـــه فرصـــة اســـتعادة تفاصيل وجهها القمحي المغرق بالتوتر- بعد أن تآمر عليها والدهـــ

ولم يعطها الفرصة للدراسة بالجامعة، بعد أن حصلت على الدبلوم بدرجات تؤهلها للالتحاق بها، وقال لها في برودة يُجيد التحدث بها:

ــ أنتِ تديرين المقهى والمائدة، ويكفيك هذا القدر من التعليم.

ــ لكن شيماء التي حصلت على أقل من درجاتي ستذهب إلى شبين الكوم لتُكمل تعليمها الجامعي.

قال في جفوة:

ــ احمدي ربنا أنك حصلت على الدبلوم.

وأضاف وهو يبتلع ريقه في هدوء:

ــ أنت تستطيعين القراءة بالإنجليزية، وأمك لا تفك الخط.

قالت وهي توشك أن تصرخ:

ــ وما علاقة أمي بدراستي؟! هي من جيل وأنا من جيل آخر.

سؤال صديقه الذي قطع ذكرياته فاجأه قليلاً، وقد خيل إليه أنه كان يقرأ أفكاره:

ــ هل يعرف والدها حكايتك؟

أجاب على الفور:

ــ نعم، بل كلمني مرة، هل ستأخذها معك إلى الخرطوم، أم ستعيشان في بيت عمتك في القاهرة؟

ـــ بم أجبته:

استدرك قائلاً:

ـــ ليس الزواج قريباً كما تظن، سأتخرج بعد أربعة أشـــهر، لكن الحياة هناك قاسية!

كانا قد اقتربا من المقهى. قال محيي الدين:

ـــ هاهي منال التي تستحق أن أمنحها حياتي جميعاً.

ماذا نقول نحن هنا؟ هل نجد في حياتنا أشياء صغيرة أو حـــتى كبيرة تستحق التعلق بها. و ما بالك بالذكريات المورقة... وهـــل تورق الذكريات بلا مطر؟... وهل يأتي المطر إلى بلاد لا تحب الربيع لأنه مجرد ربيع آخر في سلسلة فصول الأحزان المتشـــابهة الـــتي لا تنتهي؟

أخذت الريح الباردة تشتد قليلاً تلفح وجهيـــهما ممعنـــة في التحدي، وكأنها تعترض على هذا المسير البطيء مع بدايـــة الليلـــة الثانية من رمضان في قرية تعودت النوم بعد صلاة التراويح، لتصحـــوَ من السحر إلى خيوط الصبح الأولى، هرباً من اســـتمرار حـــوارات الشكوى المتكررة وأخطاء الحديث الذي قد يقود إلى ليل لا يعقبـــه نهار.

قال «محسن» وقد توقف قليلاً تاركاً صديقه يسبقه بخطوات.

ـ هل نعود؟.. لقد خرجنا من حدود القرية وأوشكنا أن ندخل المدينة .

رفع «محيي الدين» صوته:

ـ لا... تعال!، قلت لك إنني سأحكي لك الليلة شيئاً مختلفاً.

ـ لقد أتعبتني دون أن تقول لي شيئاً.

(وأضاف):

ـ منذ خرجنا من العمارة، وأنت تقول لي إنك ستحدثني عن شيء جديد مختلف .. ما هو ذلك الشيء المختلف؟

ـ امش.. لا تدع هذه النسمة الباردة اللئيمة تتغلب عليك، فتخترق ثيابك وجسمك إلى أفكارك... صدقني لن تصدق أذنك ما ستسمعه مني هذه الليلة!.

أجاب «محسن» على الفور:

ـ لا أشك أنك ستُعيد عليَّ القول إن «منالا» غاضبة من أبيها.

ـ لا شيء من هذا القبيل.. فأنا أعتقد أن مصيبةً أخرى تحاصرني أنا ومنال.

ـــ المصائب تُطاردُنا يا صديقي .. تُطاردنا مـــن حيـــث لا نحتسب (وضحك) ربما تقابلنا مصيبة الآن، أو تختفي لنا خلف هذه الأشجار ...

وأدار «محسن» خطواته إلى الخلف، وسحب يـــد «محيـــي الدين»، فأصبحت أضواء المدينة والجامعة من خلفهما، وتـــلألأت أضواء المقهى حيث تقف «منال» في الأفق الشرقي البعيد.

قال «محيي الدين»:

خلال غيابك في اليومين الماضيين، تغيرت أمـــور كثـــيرة في حياتي أيها الصديق .. و لم أذهب إلى الجامعـــة في الأيـــام الثلاثـــة الأخيرة. لقد هاتفني والدي يوم الأحد، أنه اصطلح علـــى عمـــتي «أمينة»، بعد خصام دام عشرين عاماً، وأنه سيجيء إلى القـــاهرة في عيد الفطر، ليخطب لي ابنتها «سلوى».

ـــ هل رآها والدك فأعجبته؟

قال ساخراً:

ـــ لا، بل رأى عمتي التي تُناصبه العداء من عشرين سنة، فقد ذهبت للعزاء في عمي «عوض». ويبدو أن أهل الخـــير تدخلـــوا، فاصطلحت على أبي ـــ التي كانت تتهمه بأنه لم يعطها ميراثها!

ضحك «محسن»:

ـــ ولأنها اصطلحت على أبيك، فعليك دفع الثمن والــزواج من سلوى؟!

ـــ هل لحظت «منال» شيئاً؟

ـــ لم تلحظ مني تغيراً يلفت الانتباه.

ـــ وماذا أنت فاعل؟

ـــ بل يفعل الله كل خير.

ـــ هل تحب ابنة عمتك؟

ـــ رأيتُها أكثر من مرة، وهي أكبر مني بثلاثـــة أعـــوام، ولا أحس تجاهها بأي عاطفة.

سار «محسن» إلى جانب صديقه صامتاً، و لم يعقـــب علـــى كلماته. خلف ستار الظلام أخفى ابتسامة حزينة ارتســـمت علـــى وجهه وهو يسترجع ذكريات «محيي الدين» مع منال.

مرّا على المقهى، «وليد» شبه نائم، وبجانبه كتاب الجغرافيـــا للصف الثاني الإعدادي، ومذكرة في اللغة الإنجليزيـــة، وصحيفـــة «أهرام الجمعة» الماضية مفتوحة على صفحة «بريد الجمعة». يبـــدو أن «منال» كانت تُطالع إحدى قصص المعذبات ـــ أو المعذبـــين ـــ في الأرض.

جلس «محيي الدين» قبالة (منال) صامتاً يتأمل وجهها وقـــد تلألأت عيناها بالدموع دون أن تسقط على وجنتيها، وهي تنظـــر

إليه، كأنها تقول له: أي كلام يقال سيبدو تافهاً سطحياً لا ينسجم مع هذا الكم الهائل من الحزن الذي يجثم عليَّ لموقف أبي، وهو يقول في نفسه: ماذا ستقولين في هذه الليلة الحزينة إذا عرفْتِ ما يُدبره أبي لحبنا؟!

استأذنا، بعد شراء ما يلزمهما.

قالت كأنها تتوسل إليه:

ـ لا تذهب، أريدك في أمر!

مست توسلاتها أحاسيسه، لكنه لم يتجاوب مع رجائها، وكأنه يريد إعادة النظر في رأي أبيه، الذي لا يُريد لأبنائه إلا السعادة في جنة الطاعة:

ـ لست ذاهباً إنما سأوصل «محسن» إلى السكن، وأعود.

دمدمت وهي تبتلع عبراتها، وتهز رأسها إيجابا!

ـ لا تكذب .. أعرف أنك لن تعود!

أثار كلامها في ذهنه أكثر من خاطر، لكنه أرجأ فتح باب الحوار الحر لخواطره، وكأنه يسمع صوتاً كصوته هو، يربت على ظهر منال ـ بينما هي تبكي في تشنج:

ـ هل من الممكن أن تجلسي في هدوء قليلاً.. لأشرح لك الأمر؟!!..

الرياض ١٦/٥/٢٠٠١م



القسم الثاني

في مرآة النقد

هـذه المجموعة

مبدع الشعر .. مبدعاً للقصة القصيرة!

بقلم: أ. د. خليل أبو ذياب

عرف الأستاذ الدكتور **حسين علي محمـــد** في الأوســـاط الأدبية إضافة إلى كونه أكاديميا أستاذا للأدب الحديـــث، شـــاعرا مبدعا حيث أصدر حتى الآن عددا من الدواوين منها : الرحيـــل على جواد النار، السقوط في الليل ، ثلاثة وجوه علـــى حوائـــط المدينة، شجرة الحلم، الحلم والأسوار، حدائق الصـــوت، غنـــاء الأشياء ... وغيرها؛ كما أصدر عددا من المسرحيات الشـــعرية منها: الرجل الذي قال، الفتى مهران، الباحث عـــن النـــور ... وغيرها ؛ فضلا عن الدراسات الأدبية المتنوعة التي أصدرها ومـــن أهمها: "القرآن .. ونظرية الفن" ، و"البطل في المسرح الشـــعري المعاصر"، و"المسرح الشعري عند عدنان مردم بك" ، و"ســـفير الأدباء وديع فلسطين" ... وغيرها كثير !

والدكتور حسين في شعره يمتاز بسلاسة العبارة ورشـــاقة الأسلوب وعذوبة اللفظة وعمق الدلالة وروعة التصوير وانســـيابية التعبير والبعد عن الإغراق في الغموض المعيب والتكثيف الرمـــزي

.. وهذه المزايا تتجلى بوضوح في جميع إبداعاته الشعرية : قصائد ومسرحيات!

بيد أن هذه الشهرة المزدوجة التي حظي بها أديبنا الأكاديمي الفذ عضدتها موهبة إبداعية أخرى، جسدتها هذه المجموعة التي بين أيدينا من القصص القصيرة!

وغنيّ عن البيان أن الجمع بين هذه المواهب المتعددة والمتشاكسة أمر نادر، ولا يقوى عليه غير أولي العزم، وذوي العبقريات الفذة الذين منهم أديبنا الدكتور حسين الذي تقف إبداعاته المتنوعة شواهد دقيقة وصادقة على تميزه وجدارته وتفوقه!

ولعلي لا أجاوز الحقيقة إذا ما أعلنت أنني ولجت عوالم هذه المجموعة وأنا متخوّف شديد التوجس ألاّ أجد فيها ما وجدته في إبداعاته الشعرية من روعة وجمال وفن؛ ولكن ما إن أخذت في قراءة أقاصيصها حتى تنفست الصعداء، ووجدتني مدفوعا لإتمام قراءتها والانتقال من قصة إلى قصة أخرى ، وكل قصة كانت تعمق أصالة القاص الفاضل من جهة وتمسح آثار التوجس والتخوف التي انتشرت في نفسي من جهة ثانية ، وتدفعني إلى رصد بعض الملاحظات المتناثرة عبر هذه الإطلالة السريعة المقتضبة من جهة أخرى، والتي تمنيت أن تحظى بمزيد من الأناة والريث ودقة الدرس والتحليل؛ ولكن ..

وقد احتوت هذه المجموعة زهاء تسع عشرة قصة انتقاها القاص من بين خمس وعشرين قصة كتبها على مدى ثلاثين سنة! وقد يثير هذا الأمر استغراب القارئ، إذ إن معدل قصة واحدة لكل عام أمر مثير للعجب والاستغراب، وإن كان بالنسبة لأديبنا الأكاديمي أمرا معقولا ومناسبا؛ لتعدد إبداعاته وانشغاله بالدراسات الأدبية الأكاديمية التي تشلّ في كثير من الأحيان الإبداعات الأخرى حتى ليمكننا أن نزعم أنها "المحظيّة التي لا تقبل الضرائر، ولا ترضى أن تتنازل عن شيء يسير من وقتها لغيرها، والتي لا يقوى على معاندتها سيدها"!!

على أن العبرة في كل هذا الإنتاج تتمثل في القدرة على الإبداع وتجسيد الطاقات الفنية فيها؛ وهو ما تشهد به الإبداعات المتنوعة التي أنتجها الدكتور حسين علي محمد!

والمتأمل في قصص هذه المجموعة يتبين أنها تسجل أطرافا من مراحل حياة الأديب، وبعض قطاعات من مجتمعه أو مجتمعاته التي تنقل بينها، وجوانب متناثرة من علاقاته الاجتماعية المتنوعة التي شهدتها تلك المرحلة ؛ وهو بذلك كله يؤكد حميمية العلاقة ما بينه وبين سائر شخوص قصصه الذين أشار إليهم أو تحدث عنهم بواقعية صادقة، ترفض المجاملة أو المهادنة، والذين عبروا أفق حياته

في لحظة من الزمان وكانوا يمثلون جزءا من مجتمعه الذي يعيش فيه لفتته إليهم همومهم ومشكلاتهم الاجتماعية والنفسية.

وقد كان أمينا في نقل تلك الأحداث، حريصا على البعد عن التدخل فيها أو توجيهها فضلا عن تزييفها، سواء في ذلك ما كان يخصّه هو شخصيّا، وما كان يتعلق بشخوص آخرين كانت تربطه بهم علاقات ما!

هذا وقد وضع القاص للمجموعة عنوانين اجتلبهما من قصتين من قصصها هما الأولى "أحلام البنت الحلوة" والثامنة "الطريق الطويل"؛ فأما الأولى فنظن يقينا أنها لا ترتبط به ولا تشكل له بعدا ذاتيا، أو علاقة حميمة خاصة، بخلاف الأخرى "الطريق الطويل" التي ربما كانت تحمل في أعطافها شيئا من همومه الذاتية، أو هموم جيل كتّاب القصة في هذه المرحلة مرحلة السبعينات، التي شهدت إبداعاته وتحدثوا عنها كثيرا؛ وأيا كان فأنا أرى أن العنوان الأول "أحلام البنت الحلوة" أليق وأنسب من الآخر؛ بل ربما كان أي عنوان يجتلبه من أقاصيصه الباقيات أو من أغلبها قادر على أن يحمل الغايات، ويحقق الجماليات التي يسعى إليها الأديب؛ وهو أمر لا يكاد يحققه العنوان الآخر "الطريق الطويل"، وما يعرض من هموم كتّاب القصة القصيرة المحدثين أو الناشئين الذين يتعرضون لابتزاز فئة من النقاد أو كتّاب القصة

الكبار تنفس عليهم إبداعهم وتفوقهم، خصوصا وأن القاص يضع بين أيدينا نماذج رائعة وناضجة من فن القصة القصيرة تشكل شوطا واسعا في هذا الطريق الطويل، وإن كانت مشكلة "شفيق" لا تعني بالضرورة أول إبداعاته، ولكنها قد تعني أولى خطواته على هذا الطريق الطويل!

وعند تأملنا هذه المجموعة ألفيناها حققت قدرا كبيرا من الإبداع بما وفر لها القاص من إمكانات فنية وطاقات جمالية غنية، ويقف على ذروة هذه الطاقات والإمكانات قدرته الفائقة على اختيار الحدث والتقاطه ومن ثم تطويره بتلقائية بالغة مبرّأة من الافتعال والمصادفة إلى أن يبلغ لحظة التنوير التي تشكل النهاية أو الإضاءة لطبيعية للمشكلة التي يعالجها أو الحدث الذي يعرضه؛ وقد أبدع القاصّ الفاضل أيما إبداع في عرض أحداث أقاصيصه وتطويرها وهو ما يتجلى في البدايات والنهايات التي شهدتها تلك القصص، وهذا يعني دقة الحبكة واستواءها، وتسلسل الأحداث وروعة تطويرها بلا طفرة أو انقطاع؛ وهذه السمة بارزة ظاهرة في غالبية القصص التي اشتملت عليها المجموعة يجدها القارئ ماثلة بوضوح في أي منها؛ ولو مضينا نتتبع هذه الظاهرة في قصص المجموعة لطال علينا الأمر مما يجعلنا نكتفي ببعض القصص كنماذج تؤكد هذه الظاهرة؛ ففي قصة "أحلام البنت الحلوة" نجده

يلتقط الحدث الذي يمثل التحول في أسلوب معاملة المعلم عـــامر الدكش لسنية ابنة زوجته وما انتشر في نفسها مـــن أحاسـيس التحول في علاقات الزبائن بها وقلة عبارات الإطراء التي كـــانت تنتظرها منهم، وهنا يرصد القاص لحظة توهج الحـــدث أو تـأزم الوضع النفسي لسنية والأمنيات التي تداعب خيالها بخلاصها مـــن معاناتها وفظاظة واستغلال المعلم بالزواج لتتعانق هـــذه الأحـــلام والأمنيات مع طلب "مغاوري" الزواج منها "تتجوزيني يا بت !".

وإذا كانت أحلام "سنية" قد تحققت مع "مغاوري"، فـــإن آمال "سميرة" في الزواج من "أحمد" قد تبددت وضاعت في فضـاء "المدرج ٧٨"، تحت تأثير الفوارق الطبقية عندمـــا رفضـت الأم زواج ابنها من بنت خادمتها! وأوشكت هذه القضية أن تتكـــرر مع "هشام" و"صفاء" في "يا عيني على العاشقين" لولا حزم هشـام وإصراره على الارتباط بصفاء قبل إتمام دراسته، غير آبـــه بـــرأي والده الرافض لهذه الخطبة في هذا الوقت، وإن انتهى بطرده وأمـــه من البيت للالتقاء أمام بيت صفاء لخطبتها، أو حـــتى لإحســاس صفاء وأمها بأن حضورهما إنما هو لإتمام الخطبة فـــارتفعت مـــن خلف الباب زغرودة آملة مستبشرة "!

وفي مشروع الزواج الذي شهدته عربة الدرجـــة الثالثـة تتعانق البداية مع النهاية تعانقا عميقا، وتتسلسل ملامح الحـــدث

لتبلغ النهاية المعقولة المناسبة عندما شاهد "فاتن ومصطفى" بعد أن غادرا القطار يسيران معا يتحدثان ويبتسمان ، فقال صلاح متسائلا: أترى أن السنارة غمزت!

ونجد في "انتظار" مباركة" ابنها مع الجنود العائدين من اليمن برغم إخبارهم باستشهاده منذ أكثر من شهرين، تجسيدا لآمالها وأحلامها بعودته التي تتعانق مع كلمات إمام المسجد الشيخ عبد الفتاح التي تؤكد حياة الشهيد وعدم موته وأنه حيّ يرزق، مما جدد الأمل في نفسها بعودته!!

وفي "حفل عيد الميلاد" يقف القاص عند بؤرة الحدث التي تتمثل في المشكلة الناجمة عن حمل "نهى" غير الشرعي وضرورة التخلص من هذا العار، وما دار من نقاش حوله بين "سعيد" وأبيه؛ ويوقعنا القاص بين موقفين متباينين: سعيد / الابن يريد حلاً حاسما وجذريا يستأصل كل جذور المشكلة بقتل "نهى" والتخلص من عارها، والأب الذي تجرد من القيم "يلوك قطعة صغيرة من الأفيون اشتراها بعشرة قروش سرقها من ابنته" لا يقبل هذا الحلّ ويعوض حلاً بديلا هو الانتقال من المنطقة إلى القاهرة والبعد عن ألسنة الناس وأقاويلهم؛ ويتجدد الصراع بصورة رائعة بين سعيد وصورة أبيه المعلقة على الجدار ليؤكد لها / له الحل الأنسب الذي يراه وهو قتلها

ويعرض الأب حلاً تقليديا يتمثل في حبسها في البيت حتى تلد ثم يلقى الطفل إلى أقرب شارع!

بيد أن القاص يوقعنا في إشكال جديد وحيرة عندما يؤكد استياء سعيد من طرح أبيه، وأنه كان يفكر في حل أخر رفض أن يطلع أباه عليه! فما هو هذا الحل؟، وهل يختلف عن الحل السابق الذي أفصح عنه لأبيه؟ أم أن الأمر هنا يتعلق بالتنفيذ فقط وليس بإيجاد حل بديل؟

وهذا الإشكال يتبين بوضوح عندما نعرض الأمر على عدد من القراء أو المبدعين لوضع الحلول المناسبة التي يرونها كانت محل تفكير سعيد، وما سيجد من خلاف واسع بينهم!

على أننا نجد من قصص المجموعة قصتين تمتازان ببناء فنّي مغاير لما سبق هما "الطريق الطويل" و"حكاية هنادي"، حيث يضعنا القاص بمواجهة النهاية، ثم يكر بنا راجعا أدراجه إلى البداية، فقد افتتح "الطريق الطويل" بفرحة "شفيق" المقطوعة الذراع حيث تحقق شطر من حلمه بنشر قصته وغاب شطر آخر بإغفال اسمه وعدم ذكره معها؛ ثم انكفأ يرصد ملامح الحدث من لدن لقائه بالناقد الكبير الأستاذ الجامعي، الذي أعجب بقصته التي اطلع عليها ووعده بنشرها في أقرب وقت ، وما تبع ذلك من نشر وإذاعة هذا الخبر على كل الأصدقاء والزملاء على سبيل المباهاة

والفخر بتحقيق أحلامه وآماله الكبيرة، التي ستتمخض عن هـــذا الحدث الإبداعي الضخم، حتى وصل إلى الحقيقة المذهلة عندمـــا وجد القصة منشورة غفلا من اسمه الذي كان ينتظره أكثر مـــن انتظار النشر ذاته لما ينطوي عليه من تحقيق أكيد لذاته الإبداعيـــة، وزرع للثقة في نفوس زملائه بعد أن اهتزت. بيـــد أن الكـــاتب يحاول أن يوجد له شيئا من العزاء من خلال نوم زوجته وعـــدم رؤيتها خيبته أو فرحته المقطوعة الذراع ليبدأ من جديد البحـــث عن معالم الطريق الطويل!!

وقريب من هذا البناء نجده في " حكاية هنادي " التي أقامها على أسلوب الاسترجاع أيضا كسابقتها، فقد بدأها بنبأ زواجـــها من عبد الفتاح بك زفّه إليه الكهل سائق السيارة البيجو الذي أقلّه من المطار إلى القرية في زيارة خاطفة من الريـــاض لزيـــارة أمـــه المريضة؛ ولما كانت علاقته بهنادي متميزة وضاربـــة في أعمـــاق الماضي البعيد انبرى يسترجع أمشاجا من ذكرياته معها "الأفـــراس الطينية والعرائس"، وتتداخل ذكرياتهما مع "وطفاء" بنت المـــأمور التي فكر في الارتباط بها والتخلي عن هنادي في وقت ما، وكانت تحس تجاهها بغيرة قاتلة؛ وكلما حاول الالتصاق بالواقع توغـــل في الذكريات القديمة مسترجعا أطرافا منها، تتخللها أمشـــاج مـــن أحلامه المؤجلة مع "وطفاء"، وحياة المدينة، والرحيل عن الريـــف

الذي يغصّ بالذباب والبعوض والحفاء، وما تبع ذلك من تحـــول عن أحلام عوالم الشعر السحرية إلى واقع الأرقام الحسابية !!

على أن اختلاطا ما يمكن أن يلاحظ على الحبكة وتطور الحدث في هذه الحكاية، ذلك أن القاص يضعنا أولا أمـــام خـــبر زواج هنادي ووليمة المناسبة عند قدومه من الرياض، ثم يخبرنـــا في ختامها أنه سمع ذات مساء زغاريد خطبة هنادي إلى عبد الفتـــاح بك نفسه، وأنه رآهما في ميدان رمسيس في حالة ودّ حقيقـــي، ثم يخبرنا مباشرة أن عبد الفتاح بك قد مات ذات صباح!

ومثل هذا الاختلاط والانتقال المفاجئ يوهن الحبكة ويفسد تسلسل الحدث، ويضعف فيها مسيرة الاسترجاع حتى لو كـــانت هذه الأحداث ذات أزمنة متباعدة تتخللها فترة غيابه في السعودية، ثم عودته. كذلك كانت نهايتها متوازنة ومتعانقة مع واقع هنـــادي الحزين ووجهها الذي غادره الفرح بعد أن قطع كل أمل بـــالعودة إليها وما تناهى إليه من أصوات وصراخ شقيقاته تنبعث من بيتـــه المجاور، وهن يبكين أمه التي رحلت ولن يراها مرة أخرى!!

أما بالنسبة لمستويات السرد، فقد بدا حرص القاص على التخفي وراء الكواليس والإمساك بأعنّة الأحداث ليمارس الســـرد بحرية ظاهرة، ودونما رقيب يتدخل فيها ويفسد عليه مواقفه؛ ومـــن هنا جاءت جميع القصص بضمير الغائب أو على لسان الـــــراوي

الذي يبدو في كثير من الأحيان كطرف محايد ، مجرد راصد وراوٍ للأحداث لا يتدخل في مسيرتها أدنى تدخل ، مع أن كثيرا من تلك الأحداث التي يرويها والشخوص التي يتحدث عنها تشي به وتشفّ عن صلته الوثيقة بها في رأينا مع أن عزوها إليه لم يكن لينال من شأنه شيئا يدفعه إلى التخفي وراءهم، إلاّ أن يكون ذلك ضربا من البناء القصصي الذي يروق له؛ خصوصا وأننا نجد في القصص التي يسردها بضمير المتكلم يفصح بلا تحفظ أو تحرج عن كثير من الأمور والأحداث التي تتطلب التحفظ وتدعو إلى الحوج وإن كان القاص حريصا على البعد عن التورط في قضايا الأخلاق والشرف والجنس بالصورة البشعة التي ألفها كثير من كتاب القصة والرواية في هذا العصر.

وإذا ألفى نفسه مضطرا لخوض بعض هذه المظاهر توخى التكثيف والإشارة المقتضبة وعدم الإفصاح عنها والتوغل في حناياها والحديث عنها مما لا يكاد يلفت الانتباه كما في "التجربة "، والوجه الآخر المقابل لها في الصوت الأول من "يا فرحة ما تمت" بين باتعة زوجة محجوب وشقيقه الأستاذ محبي، وكذلك في "حفل عيد الميلاد" ومشكلة "نهى" وحرص سعيد شقيقها على إيجاد الحل الجذري المناسب لها ورفض الحلول المتميعة المتهاودة

التي طرحها أبوه! وهو أمر قد يبدو متوازنا ومتناسبا مع معطيات ومفاهيم المجتمع الريفي المتمدن الذي استوحى منه اقاصيصه!

وإذا كان الصوت أو البعد الاجتماعي في قصص المجموعة على هذا النحو من البروز، فقد كان البعد السياسي أشدّ خفوتا أو خفاء فيها؛ حيث لم نكد نجد له آثارا تذكر فيما عدا قضية الجنود العائدين من اليمن في "انتظار" وما كان يسود نظرته من تأييد بالغ تمثل في قوله:

"تدفقت جموع القرية في انتظار القطار الذي سيحمل إليهم الجنود العائدين من الحرب في اليمن الشقيق لمؤازرته ولإنقاذه من جهل العصور الوسطى وحكم أسرة حميد الدين، وهاهم اليوم يعودون بعد أن سجل التاريخ بطولاتهم بحروف من نور في صفحات من ذهب!!" إن لم تكن هذه العبارات التي حصرها بعلامات التنصيص مجتلبة من الضجة الإعلامية المرافقة، وتحمل في أعطافها قدرا من الرفض والشجب؛ وإن لم يكن شيء من ذلك، فإننا نستطيع أن نرده إلى الضجيج الإعلامي الذي كان يسود المرحلة وكان القاص يخضع له خضوعا ظاهرا.

ويبدو أنه كتب قصته في أوائل الستينيات إبان الموجة الإعلامية التي واكبت هذا الحدث وقبل أن يطلع على مسرحية "الفتى مهران" للشاعر المصري عبد الرحمن الشرقاوي، التي طبعت

للمرة الأولى سنة ١٩٦٦م لتعالج هذه القضية، مستنكرا إرسال الجيش المصري إلى اليمن وبقاء البلاد بدون جيش قوي يحميها ويدافع عنها، وهذا ما جعله يقف منها موقفا مغايرا لموقف الشرقاوي كما رأينا!

وثمة قصة أخرى ظهر فيها الصوت السياسي خافتا إلاّ من الضجيج الإعلامي الزاعق في تلك المرحلة وهي قصة "يا فرحة ما تمت"حيث ظهرت آثار الضجة الإعلامية الزاعقة للاتحاد الاشتراكي الذي كان الحزب الوحيد الذي أنشأته الثورة المصرية في الستينات وما بعدها، وما واكبها من أحداث الدعاية والهتاف بحياة الرئيس جمال عبد الناصر وعدم إشراك أحد معه في ذلك الهتاف الجماهيري!!

ولا نكاد نجد وراء ذلك شيئا يتعلق بالأوضاع السياسية في تلك المرحلة لسبب لا نعلمه فيما وراء ما أفصح عنه في"المهاتفة الصباحية" من موقف عبد التواب ورغبته في التحول عن السياسة، أو"طلاقها" ليكتب في يومياته أو أي شيء آخر أجدى منها كذكرياته وهو طالب في الجامعة في أواخر الستينات أيام حرب الاستتراف وأغاني الشيخ إمام! وبرغم رغبته في التحول عن السياسة فإنه سرعان ما يتزلق إليها بعد أن غدت تشكل جزءا رئيسا من حياته.

فعندما فكر في الكتابة عن نفسه وجد نكبة ١٩٦٧م تشكل علامة بارزة عندما هوى سكين الهزيمة على عنق الأمة وانبرى فلاسفة الهزيمة يكرسون قدريتها المحتومة على الأمة من أبناء.. القردة!

ويحاول جاهدا التخلص من ربقة السياسة التي سلخ في كتابتها ستا وعشرين سنة من عمره، وأقصته عن مجالات إبداعه الحقيقية دون جدوى حيث كرّ يواصل كتاباته السياسية الميتة عن أفريقيا القارة العجوز وجنرالاتها الذين لا يهرمون وحروبها الدائمة وغياب الديمقراطية فيها !!

على أن أبرز ما يمكن أن يلاحظ على قصص المجموعة اهتمام القاص بالحدث اهتماما يفوق ما عداه من تقنيات القصة القصيرة وخصوصا الشخوص؛ وبتأمل هذه المجموعة نتبين أن قصصها كلها كانت قصص حدث أو أحداث وليست قصص شخصية أو شخصيات؛ وهذا يعني أن عناية القاص كانت بسرد ملامح الحدث أكثر من بناء شخصية محورية فاعلة ومحركة للحدث؛ وهذا يعني أننا لا نستطيع أن نجد هذه الشخصية المحورية الفاعلة أو الصانعة للحدث فيما وراء الراوي الذي يقوم بتحريك الشخوص وسرد الأحداث؛ وهذا يعني من وجه آخر أننا لا نجد الشخصية البطل في أي منها؛ ومن هنا جاءت أقاصيصه تصور

أحداثا تتطور تطورا تلقائيا سلسا، وتتدافع تدافعا طبيعيا لتبلغ العقدة التي صنعها بدقة وإتقان وما يتبعها من لحظة التنوير؛ وبالمقابل خلت أقاصيص المجموعة من نماذج الشخوص المحورية الرئيسة خاصة وغير الرئيسة عامة وتجردت شخوصه من كل الملامح والأبعاد المميزة للشخصية الروائية والقصصية بتأثير عنايته البالغة بالحدث وسرد عناصره وتطويره؛ وهذه ميزة جديرة بالتقدير ولا تقل شأنا عن تشريح الشخصية وكشف أبعادها وملامحها الخاصة!

ونقف عند عنصر آخر من عناصر القصة القصيرة وتقنياتها الأساسية وهو "الحوار"؛ وعلى الرغم من حرص القاص البالغ على السرد فقد شاع الحوار في قصص المجموعة شيوعا واسعا حتى ليمكن أن يعدّ من أظهر، أو أظهر خصائص البنية الفنية للقصة القصيرة عند الكاتب؛ والحق أنه وفق توفيقا بعيدا في إجراء الحوار وإحداثه بين شخوصه في محاولة جادة وفاعلة لتطوير الحدث؛ وهي ميزة تؤكد اقتداره الفذ على البناء المسرحي كما تؤكد ذلك مسرحياته الشعرية التي أشرنا إلى بعضها آنفا، كما أسهمت فيها دراساته الأكاديمية في هذا المجال؛ وغنيّ عن البيان أن الذي يتحكم في الحوار ويستدعيه ويتدخل في تكوينه وتحديد مسيرته طبيعة الحدث ودور الشخوص في صنعه وتطويره، ومن هنا يشيع الحوار

في قصص الحدث القائمة على الشخوص، ويندر في قصص السرد التي تقوم على القص والحكي!

وإذا تأملنا الحوار في هذه المجموعة ألفيناه متباينا وليس على وتيرة واحدة، حيث جاء أحيانا موجزا مقتضبا في بعض القصص "أحلام البنت الحلوة"، و"يا عيني على العاشقين"، و"يا فرحة ما تمت"، و"مهاتفة صباحية" حيث كانت الغلبة فيها للسرد والقص، وكان الحوار يأتي فيها بين الحين والآخر يفرض وجوده على السرد ويدور بين الشخوص الذين يتقاسمون البطولة والأحداث بالتساوي قسمة عادلة؛ وكأنه كان يريد أن يزاوج بين أسلوب السرد والحوار في قص الأحداث؛ وهو أسلوب يدني القصة القصيرة من المسرحية ذات الفصل أو المشهد الواحد ومحدودة الشخوص؛ وأحيانا أخرى كان الحوار يستغرق الجزء الأكبر من القصة وينتشر فيها انتشارا واسعا فتوشك أن تتحول معه إلى مسرحية لولا تلك الجمل السردية الكاشفة عن أبعاد الحدث وملامحه؛ وقد ظهر ذلك في قصص "ثرثرة في المدرج ٧٨"، و"التجربة"، و"زواج في عربة الدرجة الثالثة"، و"حكاية هندي"، و"حفل عيد الميلاد"؛ وقد امتازت هذه القصة الأخيرة بانحراف أو تجديد في مسيرة الحوار عندما تواصل بين سعيد وصورة أبيه في حركة درامية رائعة وبارعة؛ وإذا كانت الأقاصيص التي سبقتها

حظيت بحوار ظاهر احتل مساحات متفاوتة منها، فقد وجدت أقاصيص أخرى حرمت من هذا الحوار الذي تخلى عن دوره في بناء الأحداث للسرد ومنها "الحارس"، و"لن"، و"الطريق الطويل"، و"انتظار"، و"الأوتوبيس والركوبة الملاكي"، و"الشاطئ الأخير".

ومهما يكن فالحوار في القصة القصيرة ينبغي أن يأتي محدودا وغير واسع، وكذلك في الرواية حتى لا تتحول أي منهما إلى مسرحية أو تمثيلية، إذ كلما اتسع وشاع في أي منهما اقتربت من المسرحية وذابت الفوارق بينهما وهو أمر غير مقبول، أو ينبغي أن يكون غير مقبول لتظل لكل نمط أو نوع من الأنواع الأدبية خصوصيته المستقلة وخصائصه المميزة !

على أن الظاهرة اللافتة للنظر في حوار هذه المجموعة سيطرة العامية عليه وانعدام الفصحى فيه برغم اختلاف الطبقات الثقافية والفكرية التي ينتمي إليها المتحاورون، حيث وجدنا مختلف طبقات المجموعة تنجذب انجذابا شديدا نحو العامية وكأنها لا تعرف شيئا من الفصحى مع أن منهم من ينتمي إلى الجامعة طلابا ومعيدين ومنهم أساتذة؛ وكانوا بذلك يهبطون إلى مستوى الريفيات وعاملات المقاهي، وبذلك كانت تتحول الحواريات كلها إلى العامية وكأنها مطلب رئيس من مطالب الإبداع في فن القصة القصيرة؛ وقد دفعني هذا الموقف المعاضد للعامية إلى أن

أستنكر استخدام "جنيه" في حوار المعيديـــن مؤكـــدا أن الأولى استخدام كلمة عامية أخرى أنسب تتردد كثـــيرا علـــى ألســـنة الطبقات المنحطة في المجتمع وهي "لحلوح" أو "ملطوش" تعبيرا عن فقدان قيمته الشرائية وسرعة ضياعه!!

ويبدو أن القاص كان أســيرا لأتبـــاع وأنصـــار العاميـــة واعتبارها وسيلة من وسائل التعبير الواقعي وتجســيد الواقعيـــة في البناء الفني للقصة والرواية تغطية للمواقف الخفية تجاه الفصحى.

وعلى الرغم من اعتراف القاص بتغيـــير بعـــض الأمـــور وإحداث بعض التعديلات في قصصه، إلاّ أنه أبقى الحوار بلغتـــه العامية ليكون كما يقول "وثيقة فنية على كتابته في فـــن القصـــة القصيرة"([1]) مؤكدا رفضه لهذه العامية الآن ؛ وإن كنا نفضـــل أن يتخلى عن هذا الحوار العامي، مستبدلا به حوارا فصيحا مشيرا إلى عاميته القديمة ودواعي تغييره لأن ذلك خير من بقائه!

بقي من جماليات هذه المجموعة مظهر اللغة والأســلوب؛ وفيما وراء المظاهر العامية التي تفشت فيها على نحو ما أشرنا آنفا، جاءت لغتها شاعرية شفافة رشيقة، كما تجلـــى حرصـــه علـــى استخدام الألفاظ الموحية والعبارات الجميلة واللوحات الشـــعرية

([1]) انظر الكلمة التي كتبها على الغلاف الخلفي للطبعة الأولـــى، ١٩٩٩م.

والصور الرائعة حتى ليخيل للقارئ في جوانب كثيرة منها أنه يقرأ قصائد شعرية لا قصصا نثرية، وأن الشاعر القاص لم ينتقل "من وجدانية الشعر إلى اجتماعية النثر" كما يقول ، بل ظل أسيرا للغة الشعر إن تخلى عن وجدانيته الذاتية إلى اجتماعية النثر في معالجة القضايا الاجتماعية في أقاصيصه. ولا غرو، فمبدع هذه الأقاصيص شاعر مبدع مارس اللغة الشعرية بحميمية بالغة، وعاشها بوجداناته ومشاعره وأحاسيسه وعواطفه التي تشكلت تشكلا شعريا خالصا، وهو ذو أسلوب شعري رشيق ولغة تصويرية رائقة تناثرت مظاهرها في هذه المجموعة.

وإذا شئنا نماذج دالة محدودة على هذه الظاهرة لأننا لا نستطيع أن نسرد أكثرها أو كلها، كان أمامنا ختام " الثرثرة" حيث يقول: "إن عصفورا أحمر على إيشاربها كان يحاول الطيران، ولكن الدماء كانت تسيل من جناحه المهيض"؛ وثمة "حمامة بيضاء كانت تسقط في الظلال الباهتة مضرجة بالدماء، على إثر طلق ناري اخترق الظلام"؛ وكذلك حلم "باتعة" زوجة محجوب وما يحمل في ثناياه من تأويل مشكلتها مع الأستاذ محيي شقيق زوجها في "يا فرحة ما تمت "! وفي ختام "الحارس" نراه يعلن أن "سراديب الدهشة واللذة تغلق أبوابها"؛ وفي "التجربة" جاء وصف أو صورة زوجة "سعيد" على هذا النحو: "كانت الزنبقة قد ألقت

أحمالها، وتفتحت خمائلها، وانتشر عبيرهـــا"؛ وحينمـــا تغضـــب "صفاء" في "يا عيني على العاشقين" "فإن الشموس تهجر مداراتهـــا والعصافير تغادر أعشاشها ...."؛ وفي "مهاتفة صباحيـــة" نجـــد "صفاء" تتزلق على ضباب الذاكرة في صباح القاهرة الساخن الذي يتداخل فيه زحام الحافلات بضجيج المقاهي، والهمس مـــن وراء شيش الشبابيك بأغاني سوقة الزمن الأخير، وغناء سيارات الأجرة في ثرثرته الغبية التي تذكرني بحكايات حلاقنا القـــديم في قريتنـــا النائمة في أحضان الخضرة والسكينة"!!

ووراء هذه النماذج نماذج أخرى كثيرة تنتشر في جنبـــات أقاصيص المجموعة لتشكل لوحات لغوية غاية في الروعة والجمـــال والإبداع، ولكن لا سبيل إلى سردها في مثل هذه العجالة، ولكنها تؤكد بحق غلبة آثار الشاعرية التي امتاز بها القاص ومظاهرها علـــى أسلوب المجموعة ولغتها!!

وبعـــد؛

فهل يسعفنا الزمان بلقاء وشيك مع إبداعـــات قصصيـــة أخرى لأديبنا المبدع، أم أن الشعر والشعر المســـرحي ســـيظلان يستأثران بعبقريته وموهبته، وينفسان عليه وعلينا المتعـــة واللـــذة بقراءة أقاصيص أخرى ترسخ قدمه في تربة هذا الفـــن المـــراوغ الجميل الأثير على النفس ؟!!

القسم الثالث

١٠ قصص قصيرة

«هاجر»

محمود البدوي ([1])

هجرتني "هاجر" بعد عشرة طويلة دامت ثمانية أعوام، خرجت في الصباح الباكر و لم تعد، ولقد بحثتُ عنها في كل مكان اعتادت الذهاب إليه فلم أعثر لها على أثر!

لقد تربّت "هاجر" في بيتي، جئتُ بها من الريف وهي طفلة في السابعة من عمرها، لتخدم عندي، ولكني لم أُعاملها قط كخادم، لأنها كانت يتيمة وفقيرة، وكانت جميلة ضاحكة كالشمس.

وكانت "هاجر" في طفولتها الأولى لا تكذب قط .. كانت مثال الصدق والإخلاص .. كانت تروي لي الأخبار في صراحة وبراءة، وكنتُ إذا سألتُها عن شيء، وظهر أنها لا تعرفه كانت تجيب مسرعة:

"لا أعرف ...".

لم تكن تكذب قط.

وكانت أبداً ضاحكةً طروباً .. تملأ البيت سروراً وبهجة.

([1]) محمود البدوي: العربة الأخيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩م، ص ص٩٧-٩٩.

***

ثم مضت الأعوام وكبرت "هاجر" .. تغيّر جسمها، وبرز نهدها، واكتنز صدرها، ولمعت عيناها ببريق الأنوثة وسحرها، ورق صوتها، وزاد عذوبةً وفتنةَ.

وطال مع هذا صمتها وتغيّرت طباعها، فكنتُ كثيراً ما أراها مطرقةً واجمةً ولغير ما سبب.

وابتدأت تكذب، وتدور بالكلام! وتنظر كثيراً في المرآة، وتطيل النظر!.

ودخلت مرة البيت، فوجدتها واقفة تتشاجر مع بائع الخبز، وكان غلاماً وسيماً في السابعة عشرة من عمره .. ثم طَرَدَتْهُ وامتنعت عن أخذ الخبز منه شهرين كاملين .. ثم عادت وأخذته منه!

ولما سألتُها:

"لماذا رجعْتِ إلى بائع الخبز؟"

قالت بهدوء:

"حسن ..؟".

"آه .. حسن ..!".

"إنه مسكين ..!".

وعادت إلى سهومها وصمتها. ولقد عجبتُ لهذا التغيُّر المفاجئ الذي طرأ على "هاجر".

***

وسمعتها مرة، وأنا صاعد على سلم البيت تبكي وتعول .. ثم رأيتها تضرب الخادم الصغير الذي معها في البيت، لأنه أخذ الخبز من "حسن". ولما سألتها عن ذلك، قالت وهي تتشنج:

"إنه ابن كلب .. ولقد طردته .. ولا يمكن أن نأخذ منه الخبز مرة أخرى .. إنه غشاش .. لص ..!".

فصمتُّ، و لم أقل شيئاً.

***

وذات يوم خرجت "هاجر" و لم تعد .. لقد هربت مع "حسن" بائع الخبز ..!

«الرخيص الغالي»

محمد عبد الحليم عبد الله[1]

قبل أن تشرق الشمس في ذلك اليوم ويطير الندى عن تـراب الطريق كان هناك رجل يشق طريقه بين المزارع على ظهر حمار آملا أن يصل إلى "المركز" قبل أن يفوت الأوان.

وكان الرجل طويلاً نحيلاً، يركب حمـاراً قصـير القامـة، ويرتدي جلباباً من الصوف قد انقضت أيام عزه وولّـت سـنوات مجده، لوّحته الشمس من على الكتفيْن، فاتخذ النسيج لونـاً آخـر، وتكاد رجلاه تلمسان الأرض لطول ساقيه وقصر قامة الدابـة. وفي نعله البالي عدةُ رقع، وفي يده عصا مـن الخـيزران تُشـبه عصـا "المايسترو" كان يضرب بها عنق الدابة من آن لآن كلما أفاق مـن الأفكار.

وهناك موسيقا بدائية تنبعث من حقول الذرة كلما شـخلل النسيم بالورق يتخللها وقع الحوافر على الأرض أو شقشقة عصفـور يفر من من شجرة إلى شجرة، لكن هذه السيمفونية الصباحيـة لم

---

(1) محمد عبد الحليم عبد الله: ألوان من السعادة، مكتبـة مصـر، د.ت. ، ص ص١٣٠-١٣٨.

تكن قادرة على أن تسحب هذا الراكب من غمار أفكاره، لأنه كان مشغولاً بما هو بعيد عن الأنغام والوجدان والقلب والحب.

كان مشغولاً بحسبة، فهو يجمع ويطرح ويُوازن بين الأرقـام، ويعدُّ مطالب زوجته التي ودّعته عند الباب وهو ذاهب إلى البنـــدر وطلبت منه أقة من البلح الأمهات وعلى وجهها صفرة النفساء.

كان "عم هاشم يحسب في نفسه قائلا:

— إنه ريال .. نعم ريال، لا بأس به. سأحصل عليه فوراً بعد أن أفرغ من العمل الذي أنا ذاهب من أجله. وقبيل عودتي إلى داري سأملأ هذا المنديل الكبير بخيرات البندر. لقد طلبت زوجتي بلحـــاً، وطلب أحد الأولاد عجوة، وطلب الثاني جوافة .. على أن اللحـــم الجملي في هذه المدينة الصغيرة جيد .. جدا .. و ..".

وبلع ريقه المتحلّب، وزجر حماره الواني الخطـوات حـتى لا يفوته الوقت، ثم لسعه بالعصا وحـــرك رجليـه الطويلتــين كمــا يُحركهما الفارس بالمهماز، ثم عاودته الأفكار. إن "عم هاشم" رجل غليظ القلب يُعلّل دائماً قسوته على الناس بقسوة الناس عليه: "كيف تجني الرمان من شجرة الحنظل؟" هكذا كان يقول.

وكان مُعادياً للأقدار أشدّ العداء، يكاد يلعنها حتى في صلاتـه .. ويتوهّم أنها نصبت له في كل مرحلة فخا لا تراه عيناه.

ولما كانت الدنيا تأخذ لون المنظار الذي يُغطّي عيوننا فقد بدت له خضرة الحقول سوداء، وصفاء السماء دُكنة وغبرة، وتفاعلت نفس "عم هاشم" مع أوهامه فأخذت كل منهما من صاحبتها وأعطت حتى فسد الطعمان. وأصبح المسكين ينظر لمآسي الناس بشماتة وراحة بال كأنما كان يأمل أن تعمم الأقدار بلواه فلا يبقى في القرية قلب سعيد واحد.

ولما بزغت الشمس كان قد بلغ منتصف المسافة، وبدا الطريق في هذه البقعة موحشاً ضيقاً وحقول الذرة على الصفين كأنها غابات. وكان الراكب مشغولا بنفس الحسبة غير منتبه لشيء ولو أن الشمس الوليدة على الأفق توقظ الدنيا برفق وتُدفئها بحنان. لكنه أحس كأن الحمار يتململ من تحته، وزاد تململه حتى صار ضجراً. وبنظرة إلى الوراء رأى كلباً كبير الجسم هزيلاً كأنه مريض زائغ العينين يُداعب رجلي دابته من خلف. و لم يزد "عم هاشم" على أن زجر الكلب ثم حث حماره على المشي. فوثب الكلب إلى الحقول في صمت غريب، وقطع الراكب بضع مئات من الأمتار ثم رآه مرة أخرى، كان كأنه قد تسلّح بشيء، والشراسة الحيوانية في عينيه تُنذر بشرٍّ جديد. وقبل أن يرتفع صوت الراكب بكلمة كانت أنياب الكلب قد نشبت في مؤخر رجل الحمار، فتوقف، ونزل صاحبه ليُدافع عنه، فما كان جزاؤه إلا أن أعمل أظافره في جلبابه الصوفي

الذي ولّت أيام عزه وانقضت أيام مجده، فحدث فيه من الأمـــام ــ من حيث لا يستطيع أن يستره ــ قطْع كبير من المتعذر أن يمشي بــه ــ كضربة القضاء ــ بسرعة لا تدع للبديهة مجالاً.

وقعت هذه الحوادث واختفى المعتدي في حقول الـــذرة، و لم يحدث أن نبح مرة واحدة إلا بعد أن غاب داخل الحقول. هنا لـــك صدرت منه نبحتان مخنوقتان حزينتان كأنهما تأبين ميت، خشخشت بعدهما الحقول، وغرّد في إثرهما عصفور، وتعالى بعد ذلك في الفضاء أنين ساقية.

ووقف "عم هاشم" حائراً، مختل التوازن فأخرج منديله الكبير الذي كان يأمل أن يعود به مليئاً بخيرات المدينة وحوّله ضمادة لجرح الدابة، ثم ألقى نظرة على جلبابه الوحيد، وقَدَّر التلف الذي أصابــه، وانبرى يُعاتب الأقدار.

و لم يكن هناك مجال للرجوع لأن المسافة الباقية أقل بكثير من تلك التي قطعها .. خير له أن يذهب حتى لا يخسر كـــل شـــيء .. على أن إصلاح الجلباب ضرورة أخرى تُحتِّم عليه المسير في طريقـه، ثم عاد يحسب قائلا:

"إنه ريال على كل حال .. سيخف نزف الدم شيئاً فشـــيئاً. وسيصلح الجلباب بعدة قروش. والباقي أستطيع أن أحقق به معظـــم الطلبات".

والمهمة التي كان ذاهباً في سبيلها مهمة غير مشروعة، لكن ..

إن مشروعية الأعمال وعدم مشروعيتها تختلف في ميزان الناس، وإذا اختل ميزاننا مرّة بعد مرّة، تحتّم علينا أن نقضي مدّة معقولة حتى يعود إليه ضبطه، وحتى نُغيِّر بأيدينا من جديد "صنجاته" القديمة، لذلك فإن الذين يهبطون المنحدر قلما يتوقفون إلا إذا وصلوا إلى الحضيض. وكان "عم هاشم" يسب الطرفين معاً، والحمار يعرج. كان يسب الذين سيمدُّ إليهم يده بالمساعدة والذين سيمدُّ إليهم يده بالأذى. وأخرج من جيبه سيجاراً ليشعلها، وبعد أن وضعها في فمه تذكّر أنه نسي الكبريت، فتنهد في صمت، ثم عاد لأفكاره قائلا:

"هناك في السلسلة حلقة مفقودة، فقد كان هناك شبه مودّة بين الدائن والمدين وانقطعت فجأة، وتكلّم الناس كما هي عادة الناس، وعلّقوا على الموضوع، لكن .. أنا أُرجِّح أن الدائن على حق. لست على علم بتفاصيل الحوادث، ولكنها كلمة، سأقولها كما هي العادة أمام القضاء، ثم أخرج ..".

وكان قد دخل البندر في هذه الوهلة. وكانت الحياة قد دبَّت في الشارع الرئيسي، وبدت أقفاص البلح الأمهات مرصوصة كأن فيها كهرمانا، وأفخاذ اللحم على واجهة المحال تُنبِّه شهية المعدة، وهناك أشياء أخرى لا قِبل له بشرائها.

وعرّج أولاً — وقبل كل شيء — على دكان خياط، فلفّق جلبابه، ثم اتجه إلى المحكمة، وقابله الدائن، وشدَّ على يده، وبرقت عيناه بمعنى الوفاء بالوعد، ومرّت عليه المرأة المدينة ..

كانت في خريف عمرها، تتعثّر في جلباب قروي طويل، داست عتبة المحكمة للمرة الأولى، فدمعت عيناها لحيف الزمن وقلة الرجاء وكثرة العيال. وألقت نظرة خاطفة فارغة من كل أمل على وجه الرجلين، الدائن منهما والشاهد، ثم خطت إلى الدّاخل يتبعها غلام في العاشرة من عمره، على وجهه ملامح أمه، وفي عينيه انكسار اليتامى.

وكانت المرأة ذات وسامة، تدرك الأبصار حين تقع عليها أن الدنيا جارت عليها فجأة، وأنها تُجاهد. ولم يكن في وجهها بادرة واحدة من بوادر الاستسلام، نعم إنك قد ترى على وجهها ذلا، ولكنه في إطار من الصبر، وتحت ظل رجاء كبير في قوة مبهمة، لكنها عظيمة.

وبدت على وجه الدائن إمارات الغيظ، وطوّح عصاه ذات المقبض والحلية، وسار في كلّ اتجاه يُضيِّع الوقت. وجلس "عم هاشم" في فناء المحكمة يستعيد ما سمعه من الناس.

إن هذا الذي جاء يشهد معه ضدّ هذه المرأة بأنها مدينة بعشرة جنيهات أرملة لفلاح مسكين دهمه الموت فترك أربعة من الأولاد

أكبرهم في سن العاشرة. ودخل الدائن في ثياب الملائكـــة في هـــذه الدار بعد وفاة صاحبها، وفجأة أراد أن يلبس ملابـــس الشـــياطين، وبخلت عليه المرأة بما اشتهاه، فانقطعت العلاقة، لكنه عاد إليـــهم في ثياب الملائكة مرة أخرى، ثم ما لبث أن ظهرت خبيئة نفسه، فلقـــي من الفقيرة الحرة التي "تجوع ولا تأكل بثدييها" ما اعتـــبره مـــهيناً للكرامة، فقام النزاع ووصل بهما الأمر إلى حـــد أن أوقفـــها أمـــام القضاء.

ولأول مرة في تاريخ "ذمة عم هاشم" شعر بقشعريرة تســـري في كيانه لما ارتفع صوت الحاجب مناديا عليه، لكأنّ صحوةً غـــير منتظرة دبّت في ضميره .. والأرملة الفقـــيرة جالســـة وفي عينيـــها شجاعة ودموع ..

وكان القاضي جديداً على المحكمة، كان شديد الهيبة، شـــهي السمرة، يمسح شاربه الأسود المائل إلى الغزارة، وينظر بعينين ثابتتين. ولّما مثل أمامه "عم هاشم" حملق فيه طويلاً كأنه يلتمس في ملامحـــه رجلاً كان يعرفه. ثم طلب بصوت هادئ النبرات القسم المعروف:

"والله العظيم أقول الحق".

وأقسمه الشاهد، ثم بحث عن ريقه فلم يجده. وأشعة قوية مـــن عينين سمراوين تنبعث باستمرار. والسكون مخيم كأنما هبط الظلام .. إلا من سعلة لرجل كهل كانت أشبه بلفظ الأنفاس.

ولم يتكلم "عم هاشم" فوراً، واستمر برهة أخرى لأن نباح كلب غضبان تعالى خلف النافذة آتيا من الحقول. وكان النباح حاداً أول الأمر، ثم استحال بعد قليل إلى عواء، كأنه نواح، وجعل يقترب شيئاً فشيئا حتى بدا التأذّي على وجه القاضي، واستحث الشاهد على أن يتكلّم.

كان "عم هاشم" في انتباه من يستمع صوت النذير .. خُيِّل إليه أن الحيوان الذي اعترض طريق مجيئه قد تعقّبه، وربض له تحت الشباك. ونظر الشاهد إلى الأمام فرأى العينين السوداوين لا تزالان متربصتين له. وندت من خلفه تنهدة عميقة خرجت من صدر مهموم .. لم يسع الشاهد إلا أن يقول الحق.

ولم يكن هذا الحق في صف الدائن، بل كان في صف الأرملة، ولّما خرج المتخاصمون كانت المرأة تدعو "لعم هاشم"، وكان الدائن يُعيِّره بتاريخ ذمته — باختصار — بماضيه المجيد. لكن الرجل لم يُعلِّق بكلمة ..

وفي طريق العودة بدا كهرمان البلح الأمهات يخطف البصر، وعناقيد الحيّاني تُحيِّر الألباب، واللحم الجملي السمين يُثير جنون المعدة. لكن صوت الضمير كان لا يزال عالياً فلوى وجهه عن كل ذلك بشيء من الاشمئزاز، وتذكّر الأرملة التي رضيت بذل الحاجة ومرارة العوز، ولم ترض أن تبيع الغالي.

وتمتم الشاهد: صحيح .. آه .. يجب ألاّ نبيع الغالي رخيصاً، هيه .. وكل الذين هانوا في حياتهم باعوا الغالي رخيصاً أول الأمر.

وسكت. سرح ذهنه يجمع الشواهد على هذه القضية. فتذكّر زكية بنت عبد الموجود التي باعت الغالي رخيصاً لأحد الناس في ليلة ظلماء فعاشت بقية عمرها ذليلة. وتذكّر فاطمة بنت عبد الخالق التي تركت أولادها بعد وفاة زوجها صغاراً كأنهم أفراخ دجاجة وتزوّجت رجلاً جديداً. ومرّت الأعوام وكبر الأطفال، وشاخ الشباب، وأصبحوا يمقتونها لأنها لم تحبهم في ضعفهم، فمصمص شفتيه ..

ثم ذكر رجلاً آخر ظل يتصعلك لأحد الأغنياء، ويسير وراءه تابعاً ذليلاً من أجل تفاهات، وبعد حين من الزمن خلعه الغني كالشيء البالي، بعد أن كان يتبعه مثل ظله.

ومصمص بشفتيه مرة أخرى. وفطن إلى أنه على ظهر الحملو وهو يعرج به، والطريق ضيق، وحقول الذرة على الصفين، فقلل في نفسه:

"من طويل وأنا أبيع الغالي رخيصاً، فلماذا؟"

وتحت شجرة وحيدة رأى امرأة تستريح، كانت تمسح عرقها بطرف طرحتها لأنها قطعت المسافة ماشية، وكانت هي المدينة التي

رآها منذ ساعة وبجانبها ولدها، وقد جلس وفي إحدى يديه خبز وفي اليد الأخرى خيارة يأكل فيها.

وسمعها تدعو له وهو مار عايها، فرفع وجهه إلى السماء طالباً من الله أن يستجيب. وتصالح مع الأقدار. وحول البقعة التي هاجمه فيها الكلب أثناء ذهابه رآه واقفاً مرة أخرى. و لم يكن على الطريق بل كان عند مدخل الحقل وقد بدا نصفه الأمامي فحسب. وكان فاغراً فاه يلهث بعنف، وعيناه الزائغتان خاليتان من كل مدلول. وتأهّب الراكب للدفاع عن نفسه لكن الحيوان لم يُغادر مكانه. وبعد أن قطع "عم هاشم" بضع مئات من الأمتار رأى الكلب يدخل إلى الحقول. ولمّا غاب عبرها سمعه ينبح .. مرّة أو مرتين عاد بعدها إلى الصمت أشد عمقاً وسكوناً.

وعند باب الدار رأى طفلين ينتظران. وكنت يد أبيهما فارغة مما طلبا، فرقصت على وجهيهما خيبة الأمل. لكنه قال لهما: "إن أحد اللصوص هجم عليه أثناء الطريق وسلبه كل شيء".

وأراهما آثار المعركة. فلما اعترض ابنه الصغير سائلاً:

ـ ولماذا يا أبي يشتغل بعض الناس لصوصاً؟

حمله إلى الداخل ومشى يُقبِّله، واحتفظ لنفسه بالجواب.

«مشاهد من غابة النار»

أحمد زلط [1]

(١) سُعار ...

*قال كبير الذئاب للقطعان في الغابة :

ــ يا معشر الحيوان .... روجوا للكذب في الغابة وكل غابة، بل لدى السادة في الغابة الأم ... اجعلوا الكذب رخصة البراءة ؛ شتتوا كل داجن وخانع في غابتي ... معذرة .. غابتنا.....

ــ تحسس الذئب الأكبر مخالبه وارتفع العواء فصاح :

ــ اقتلوا الغوغاء والفرقاء الأغبياء... ولا تنسوا أبداً قناعنا الذهبي .. منعوه عند كل المفاوز، ولتردد الأبواق : هم الذين يقاتلوننا بين الماء والماء وسيلقون بنا في الماء أيضاً.

نهض الثعلب نائب الذئب الأكبر وقال:

ــ نفعل ذلك ودائماً ... نخطط في مكر ، وننفذ بلا رحمة ؛ قتلاهم لعبتنا .. حمرنا ، لا ضير ما دمنا نستعطف نجدة الغابات الحليفة !

---

(1) نشرت على الإنترنت في «منتدى مكتوب الأدبي» في ١١/١٢/٢٠٠٠م.

قاطع الخرتيت حديث الثعلب وقال :

أيها الذئب ، يا معشر القطعان، أنا وفصيلتي؛ بل كل الفصائل من مُرابط ومهاجم ، نعيش للقنص والامتصاص ... مخالبنا دائماً جاهزة للذود عن أرض الغابة وهيكلها و..

تدخل وكرهم كلاب الغابة في نباح موصول ، استطال النباح ، وفجأة عوى راشد الكلاب وما كرهم القائم على الأمن والشرطة في الغابة ... واصل العواء والنباح وقال :

متعطشون أكثر للدماء ... مخالبنا وترسانة أسلحتنا لم تعد كافية لإبادة الجميع ... نريد أسلحة أمضى ، وأرضاً لا يشاركنا أصحابها الغوغاء .. ها.. هَوْ .. هَوْ .. تدخل كبير الذئاب ، إذ لحظ كلابه المسعورة تلعق السلاح وتشتهي المزيد من الدماء .. فأومأ إلى ببغاء غابته الذي بادر الجميع فتصايح : هيا زمجروا وعربدوا متى وأينما شئتم .. مخالب .. رصاص .. أكفان .. قمع .. وخمر .. عيشوا أيها الذئاب والثعالب والكلاب .. بين مخالبكم لذة لا تنقضي .

(٢) وجع:

في أرجاء الغابة بين النهر والبحر وعند حدود الجيران أخذت الأعشاش والأوكار تتزايد .. نهب وتوطن .. ومخالب تستوطن ، ثم

تهاجم وتعربد وتعود إلى مناطق أخرى من الغابة، بينمـــــا يــتروي المسلوب في أشباه جحور، مخيمات يخيم عليها الطيور الجارحة قنـص ، قصف ، نار ودم وحصار وجوع ، تئن الأفراخ المحاصرة من كـــل الجهات .. مخالب الصقور مدببة ومحشوة بالحقد .. الحصار الخـــانق يطول .. استحال الوجع إلى مذابح صامتة .. زغـــب الحواصـــل ، الإناث الكهول يتساقطون .. فوق المخيمات المحاصرة تعربد الصقور وتحوم .. تمكر .. تحوم .. وتعاود القنص .. القصف .. الانقضـــاض .. الوجع .. الافتراس .. الوئام الكذوب الرصاص .. الوجع المقيم .

(٢) بكائية اللذة !

وقف بعضهم أمام الحائط العتيق، اللحى الطويلة تفصح عـــن سواد مماثل في صدور هؤلاء .. القبعات الأكثر سواداً تغطي الرؤوس ، ألسنتهم تقذف بحجم السم الزعاف .. المتشحون بالسواد يبكـــون هكذا . ويبكون وأياديهم لا تجف أبداً من الدماء ولا تكـــف عـــن البكاء ؛ الرصاص الخارق الحارق يروع أصحاب القلوب الخضـــراء ، نالهم وهم بين يدي الله .. أريقت الدماء في رواق المسجد المبـــارك ، حوله لا يزال أصحاب القبعات السوداء ، يتمايلون يبتهلون الزيـــف ثم ينخرطون في البكاء من فرط لذة امتصاص الدمـــاء ... مخـــالب

القتلة تستطيل وتميل مع المتشحين بالسواد ، كأنما تقـــول في عنـــاد وغطرسة :

ـــ مرحى معشر الذئاب .. الفناء للحملان ... ليبـــارك رب الهيكل في المخالب

وعلى الأرض الرصاص .. الأكفان .. الـــــ ..

(٤) زيتون وبارود ...

في أماكن وعرة من الغابة ، متبـــاعدة ، ومحـــدودة وضيقة ، حوصر المسلوب حكم الذئاب مخالبهم ، القيـــود ... السدود .. القاذفات الراجمات .. الدهاء .. لحصـــار الرصاص .. المخيمات تتلوى ، تنهض فـــترقد ، تركـــض وتتشبث بالأرض دون جدوى ، تُزهق كل محاولة ، مثلمـــا تُزهق في وحشية أرواح الضعفاء ..

قال الشيخ اللاجئ إلى عالم الحيوان يحدث نفســه في صمت :

ـــ آه من مخالب الذئاب وسعار الكلاب ... آه ...

لحظ الحفيد شرود جده الصابر الكظيم فقال :

- نحن زرعنا أشجار الزيتون قبل مجي ذي المخـــالب ولن نترك أشجارنا للجرافات أو للبارود كي يقتلعوهـــا أو

يحرقوها بل سنشاركها أنفاس الحياة ، لا تنس يا جـدي .. ابنك الشهيد ، الذي مات تحت تلك الأشجار فرواها بالدم الغالي ... و ...

انتبه الجد، أفاق وتذكر فتحدرت على أخاديد وجهه قطرات من دموع امتزجت بالحزن والأمل ، بادر حفيـده في حنو وقال :

الحق معنا .. الله معنا يا بني .. وسنثأر بمشيئة الله وعونه .

(٥) صرخات ..

اليوم في الغابة ككل يوم مضى ، أفـانين عجيبـة للحصار والقنص ، العمر لحظة ، سنون المخـالب تغتـال طفولة الشجر والكائن الحي أنى وجد ، جمدت الأشجار في أماكنها ، الركض والمرح والغناء باتت أشياء مسـتحيلة .. الاحتماء بالحجر ، الأشجار هي الأخرى ثمـار ملغومـة ، استحالت الأشجار إلى جهامة وقتامة ،إذ سمت النار والـدم والبارود .. تئن وتستصرخ ، الغناء غصـة في الحنـاجر ، ضحكات ذابلة وخرساء إلا من بسمة علوية فوق شـفاه الشهداء .. حاول الصغير الشبل أن يكتشـف مـا وراء حدود الحصار؛ أمسك بيديه الغضتين جاره الفتي ، حـاولا

الخروج الفكاك أعادهما إلى قيودهما المخالب والكشـافات وفوهات الحديد والنار ، والأسلحة راجمة من الراجمـات .. المروحيات .. الدبابات ، الأزيز والـدوي والفرقعـات .. حاولا مره دون جدوى .. ارتدا إلى المخيم ولسان حـال الصمت والقمع والتجويع يقول : " إن بعد العسر يسراً " .

(٦) سجن اضطراري:

انزوى الصغير في ركن من المخيم يبكي في حرقـة شديدة ، الأم الحنون تهدئ من روعه وتقوي عزيمته : لقـد حرمت أبهاء الطفولة فكن رجلاً ، لحظات عصيبة تمضـي وعصا (الجد) تتجه إلى داخل المخيم . الجد ينقر بعصـاه الزيتونية العتيقة أرض المخيم ، حاول أن يعيد البسمـة إلى حفيده، فقال : ما بك يا قرة العين ؟ اعبث بخصـلات لحيتي البيضاء ، اركب ظهري ، مع أنه تقوس... خذ مـني يا درة القلب ..

– أشكرك يا جدي .. لكني ضقت مـن سـجني وقاتلي ؛ أريد حقي في اللعب أود رؤية وملامسة أرضـي وأوطاني .. أنموت هكذا يا جدي ؟! استشعر الجد حـق

الحياة فبادر حفيده قائلاً : بلى يا ولدي .. استعن بالصبر والصلاة ، وغداً ستكبر و ..

فجأة عاد الصغير الحفيد إلى هذيانه ، صياحه الصارخ في البرية :

حصار .. نار .. تجويع .. لا دخول ولا خروج ولا حتى حق العلاج فوق أرضنا ، لقد جعلت غابة الجوارح الطارئة الموت خيارنا الوحيد يا جدي .. أين أبي الشهيد يا أمي.. أين ... أوقف الصراخ حكمة الجد فقال : تعال إلى حضني.. ستخرج .. ستخرج وتركض وتحيا .. أعداء اليوم هم أعداء الأمس يا عزيزي ، وستعرف سر ما تريد حين ألقاك في الخامسة أنت وأصحابك تحت شجرة الزيتون المعمرة .

(٧) غفوات ...

غفا الشيخ الجد غفوات متقطعة ، طفق يحدث نفسه في حلم ماثل نيوطه من فيض أنينه ومعاناة عشيرته ، لن يفهم حفيدي وأقرانه أبعاد ما قلت، سأحاول، التاريخ يعظ ، الجغرافيا البشرية ديموجغرافية متحولة ، المخالب قادرة على التغيير ... (استمر في الهذيان المحموم) .. نوبة عاقلة

من غفواته، من وطأة مخالب الذئاب الكلاب والثعالب كذلك .. في غياب الرعاة الأسود تتكاثر الذئاب الكلاب ... استيقظ الشيخ من غفوته وهو يتمتم في صوت غير مسموع : لقد اقترب موعد الساعة الخامسة !

(٨) الكنز ...

احتشد الأشبال تحت شجرة الزيتون المعمرة ، اقترح أحدهم الغناء لو للمرة الأولى .. قال من محفوظاته

وما نيل المطالب بالتمني

ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

ردد الجميع ما قاله ، بينما علا صوت آخر يقول :

وللحرية الحمراء باب

بكل يد مضرجة يدق

وفجأة يصل الشيخ الجد في موعده ، يتوقف الغناء ، التقط الشيخ أنفاسه أشار إلى الأشبال بالحفر أسفل الشجرة ، في غير عناء التقطوا الوديعة شبيه المتربة ، فتح الشيخ الصندوق الخشبي ونفض عنه التراب وقال :

كنزكم الضائع هو هذا ... بهت الأشبال .. مد الشيخ يخرج أول محتويات الكنز هذا سيف عتيق نادر كما ترون من النقوش،

هو لمجاهد قاوم وانتصر المخالب الشرسة نفسها منذ قرون ، وهـذه خرائط ووثائق عقود أملاككم في الأرض المسلوبة .. هذه أوطانكم .. أرضكم التي نهبوا وينهبون .. أغلق الجد الصندوق، دموع الجميع تتساقط في حسرة وأمل ؛ عادوا إلى المخيم في صمت أسيف.

(٩) سكون وشجون ...

استأنس الأسد الأكبر - من عرينه البعيد- رموز الغابة وفي كل الغابات المحيطة ، حاولت فصائل الغابة غير المستأنسة الاحتجاج العام من بطش مخالب الذئاب والكلاب والثعالب ، وأدت القردة من وفود الأسد كل محاولة نبيلة ، مرت الرموز يباركها الأسد الأوحد هناك ! .. استمرأت البغاوات الصمت ، الجوارح أكثر بشاعة ووحشية ، السكون .. الرصاص ... السكون ... الطواويس .. وأقدام العروش والكروش تهذي بالمعاد والزائف .. الهدهد يفقد حدود المنطق عند حدود الغابة الذئبية .. آلاف من القطعان الحملان تفترس وتقطع أوصالها من الكلاب الذئبية ولا مجيب .. الصدى انفعال .. شجون .. شجب .. على أطراف الغابة تقع في فخاخ الصياد ثلاثة كلاب فتهب غابات الكون النجدة ، هنا أسر الكلاب ، يا لهفي على أسْر الكلاب .

(١٠) أمطار وأحجار

أشرقت شمس الله ، أحاط زمرة الأشبال بالشيخ الجد ، اتجهوا به إلى المخيم الأوسط، العيون تتناوب النظر ... خطوة للـــــوراء ، خطوات للأمام مخالب تستطيل ... الصقور تعود.. الحمائم تختفي ، برق ورعد ومطر ، لله دره ، ترنم الأشبال في هتاف هز أرجاء الغابة :

ــ الأرض المطر .. الأرض البشر ..

ــ الأرض الحجر .. الأرض الحجر ..

ــ أصبح لدينا البنادق ؛ لنخرج كالصواعق ..

«رأس الأفعى»

حسني سيد لبيب [1]

حكم عليه بالسجن مدى الحياة في جريمة لم يرتكبها. يتكوم جسمه النحيل على كرسيه. يقدمون له الطعام والشراب. يشغل وقته في التنقل عبر القنوات. لا ينتقل على رجليه أو راكبا دراجة أو سيارة أو قطارا أو طائرة. ينتقل بجهاز التشغيل عن بعد، فيرى على الشاشة صورا شتى، ويا هول ما يرى ! جثثا وأشلاء ودما مراقا على أرض الكرة المجنونة. تئن الشاشة الصغيرة، تستنفره الصور. أمسك بالقلم. يكتب رسالة، ينبه معدّ الأخبار كي يتحاشى نقل اللقطات.. إنها تدين، تنطق، ومن العار أن تجلس ساكنا على كرسيك. افعلْ شيئا. هذا التصوير تمثيل بالجثث. يردون عليك يا مسكين بأن عالمنا قرية صغيرة، تتعرى فتفضح الجسم المشوه والوجه القبيح الناطق بزيف بطولاتنا ودعاوانا. كتب الكثير، وتقاطرت دموع من عينيه، سالت على الورق. ألا يكفيك مستنقع الدم الذي نعيش فيه ؟ أعاد قراءة ما كتب. وطوى الرسالة.. التي تقدم له

([1]) حسني سيد لبيب: نفس حائرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ١٩٩٩م، ص ص ٨٧-٩٦.

طعامه وشرابه ودواءه، تحمل معها أيضا الجرائد والمجلات، وتضع بريده في الصندوق. التي تقوم على خدمته وصيفة تأخذ من أبيه راتبها. ودفع عنه أبوه، بثروته الهائلة، مذلة الاحتياج إلى المال.

توتر. غلا الدم في عروقه. ناقش الوصيفة. أبان لها مدى الجرم الذي نتردى فيه جميعا. طلبت منه أن يخلد إلى الراحة. لا فائدة من شئ. أجل، لا فائدة من شئ. فها هو سجين كرسيه، رهين محبسه، محكوم عليه بحياة لا طعم لها.

في الجريدة، تحقيق عن مغتصبات بوسنيات مستضعفات. ترك المحرر لهن حرية الكلام. تحدثت فاتيما عن جارها الذي انقلب ذئبك وعن أخته التي كانت يوما ما صديقتها. كانتا تذهبان إلى المدرسة كل صباح، يحلمان سويا بالغد، ويبتسمان للحياة. هجم عليها جارها وهي في مهجعها وكانت تحسبه آمنا. هجم عليها مع نفر من أقرانه، كل يأخذ وطره منها، بالتناوب، غصبا وعنفا. ولما لمحت أخته، استعطفتها بصداقة جمعتهما ذات يوم، أشاحت وجهها عنها كأنها لا تعرف فاتيما، وتركتها لقمة سائغة للذئاب. يا الله.. من أطلق الشيطان الخبيس من قمقمه ؟ الحية تنفث سمومها. اشطبوا كلمة (إنسان) من قواميس لغات العالم. اخلعوا أرديتكم وأقنعتكم الزائفة. اكشفوا الوجه القبيح الكريه. أميطوا اللثام. يا الله.. وهل بعد ذلك إماطة ؟!

أعطته الورق. كتب رسالته عن حقوق ضائعة. ابتسمت الوصيفة :

ـــ لا تتعب نفسك

قالت في تحد سافر :

ـــ إن لم أكن عاجزا لاغتصبتني..

ـــ ماذا تقولين ؟

وجم، كمن تلقى طعنة بخنجر سام. قالت تداهنه :

ـــ لا أقصد شيئا. كل ما هنالك أنك سوف تجمل فعلتك وتزينها بأنك أحببتني، وأنك عاجز عن مقاومة إغرائي.

ـــ إني عاجز عن...

لم يكمل. اختلطت المعاني والحروف، فتلعثم لسانه، واغرورقت عيناه بالدموع. هل يصير وحشا ؟ قد لا تتقاتل الوحوش فيما بينها هكذا!

لحظات مريرة صامتة، ثم صرخ بكل ما قواه، كأنه يهزم صوتا يضج بجنبات نفسه :

ـــ لست كأولئك الوحوش..

أبعدت الجريدة، وأضاءت الشاشة الصغيرة. ما زالت الأخبار الدامية تدق عظام جمجمته بإلحاحها المتواصل ليل نهار. مقتولون هنا، ومقتولون هناك. لا تقل قتلى، إنها كلمة غير دقيقة. أليس

كذلك يا سهى ؟ فالقتيل يمكن أن يقتله الغير مصادفة أو عمدا، أما المقتول فقد قضي عليه وحكم عليه، عمدا وإصرارا ورصدا، إنهم مقتولون ومقتولات..

ـ أرح نفسك. أنت فرد. ورسائلك الساذجة لا تساوي، في نظرهم، الحبر الذي كتبت به. عذبته كلمات سهى. ومذيعة الربط تعلن عن موعد نشرة المواجع. الضحايا يتساقطون هنا وهناك.

كل يوم ضحايا، كل ساعة، كل دقيقة، كل لحظة.. وليس ثمة غد أفضل للإنسان.

انتفض حين سمع رنين الهاتف. ناولته السماعة، فأتاه صوت أبيه يوصيه بأن يتدثر جيدا من البرد الذي يكسر أضلاع الجسم. ويعتذر عن عدم زيارته، فالمصنع يمر بأزمة حادة، ومزارعه بالفيوم تقضي على ما تبقى من وقت، فيرجع إلى بيته في وقت متأخر، فتعتب عليه زوجته انشغاله الدائم عنها.

هكذا أبوه. مشغول دائما. وأعذاره كثيرة. فلا يكاد يراه إلا مرة كل شهر. يقضي معه وقتا لا يتعدى الساعة. وينتفض الأب عندما يجد ابنه يوصيه بزيارة قبر أمه، فيطمئنه بأنه يفعل ذلك من وقت لآخر، ويشيح بوجهه، حتى لا تقع عيناه على نظرات الشك في عيني الابن المصلوب على الكرسي.

يضع السماعة، وهو في توتر بالغ، متذكرا أمه المتوفاة وهو في الخامسة عشر. وطفق يذرف الدمع. تصمت سهى وقد انتقل إليـــها حزنه. تخرجه بعد لحظات من حاله هذه قائلة :

ـــ الله يرحمها. فلنقرأ الفاتحة على روحها.

ويقرآن الفاتحة معا.

استسلم للنوم. لم تشأ سهى أن تتحرك بكرســـيه لتنقلـــه إلى السرير. قد اعتادت منه هذه الإغفاءة القليلة، ويصحو منها ليتنـــاول قليلا من الطعام، وجرعة الدواء، ثم تعد له قدح الشاي. ويطل مـــن جديد على عالمه الخارجي، فيعود إليه التوتر. تناول القلـــم وأخـــذ يكتب رسالة جديدة، قال فيها إن صناعة السلاح أس البلاء وأصـــل الشرور. تعارضه سهى :

ـــ نوازع الشر يتوارثها الإنسان، منذ خلق الله آدم وحواء.

أصابه خرس، لم ينبس بشيء.. أكملت :

ـــ لا تنس قابيل وهابيل..

ـــ أنا لا أنسى شيئا، لكن....

ـــ فيم تفكر ؟

ـــ في القديم، كان الفارس ينازل خصمه، ندا لند، وإذا مـــا انكسر سيف الخصم، رمى الفارس سيفه، ونازل خصمـــه رجـــلا لرجل. إنها الفروسية والشجاعة. أما الآن..

ـــ القتل خلسة وغدرا وخداعا وغشا..

أخذ يقرأ في الدوريات عن منظمات حقوق الإنسان، عـــن مؤتمرات وندوات للدفاع عن تلك الحقوق.

ـــ إنهم يتحدثون عن حقوق كائن آخر. أليس كذلك يـــا سهى ؟

ـــ إنهم يدافعون عن مصالحهم..

مذيعة النشرة تتحداه. لم تزل تذيع أنباء عن حمامات الـــدم، وتبث التقارير المصورة، عن مقتولَيْن متعـــانقَيْن، عنـــاق روميـــو وجولييت، فما انفصل الجسمان، بعد رميهما برصاص جبان. أطفـــأ الجهاز. عاد يقرأ التحقيق بالجريدة عن مغتصبات بوسنيات أخريات. كل شئ مكتوب بالحبر الأسود. كل شئ منشور على الملأ، بكـــل لغات العالم، وآلات التصوير ذات الأضواء الخاطفة المبهرة، صـــورا متدنية، بالأبيض والأسود، وبالألوان، كل الألوان، لكـــن الأحمـــر القاني هو السائد....

مغتصبة أخرى يزعجها الصحفي بأسئلته. تطلـــب منـــه أن يكف ويرحمها. تخفي وجهها بكفيها حتى لا تلتقط لهـــا صـــورة. تقاطرت دموع من عيني الصحفي، كتب يقول: " ما عدت أفـــرق بين مهمتي الصحفية وبين رغبتي في تهدئة بدرية. طويتُ أوراقـــي، ودسست قلمي في جيبي، وأخذت أعالج أحزانها قدر جهدي، لكـــن

هيهات. صرخت بدرية في وجهي، بكلمات متدافعة كطلقات الرصاص، تحكي لي ما أصابها، بعد أن وعدتها بألا أكتب حرفا واحدا مما قالت، أو أكتب شيئا سوى اسمها، وقد وافقت على نشر الاسم فقط "...

هوى بقبضة يده على مسند الكرسي ذي العجلات :

— أين أنتِ يا سهى ؟

أتاه صوتها من المطبخ :

— إني قادمة بصينية الشاي. لا تنفعل كثيرا..

أتت تهرول. وضعت الصينية على المنضدة، وجلست إلى جوار كرسيه، قطة أليفة أنيسة.

قص عليها ما لم يقرأ من قصة بدرية. شرح لها ما يكون قد حدث. ثم طلب دفتر الرسائل، وحرر رسالة إلى الصحفي، ناقلا إليه الأثر الذي أحدثه التحقيق في نفسه.

عاود الاستماع إلى المذيعة، قارئة نشرة المواجع، عن حوادث العنف، معقبة على كل خبر بابتسامة صغيرة تظهر بها رقتها. توقع حدثا جللا. ضجت الكرة بالضحايا. قد تنفجر الكرة المجنونة ذات يوم. قد تقدم على الانتحار، تتشرذم في الفضاء الواسع، تتحول إلى شظايا، ولا يبقى منها من أثر. ويبقى الكون في ديمومته وأبديته، شاهدا على كوكب طائش.

هاك مصور يلتقط صورا للجياع، بأجسامهم الضامرة. النساء عاريات الصدور، بأثداء عجفاء، وعيون زائغة. والأطفال، عظـــام بارزة، ورءوس كبيرة لا تعي ما حولها.

أتاه الحلاق. أخرجه من عالم الكوابيس. حياه وجلس يســليه ببعض النوادر. فأحس بأن ذقنه قد كبرت، كذلك شعر الرأس. رأى أنه لم يأخذ حماما منذ أسبوع. هذا اللقاء الأسبوعي، لقاء حتمي مع الأسطى فتحي الحلاق. يرسله إليه أبوه ولا يتأخر عن موعده. بينـا الحلاق يحلق له شعره وذقنه، كانت الوصيفة تجـــهز لـــه الحمـــام الساخن. عندما يحضر الأسطى فتحي، ينسى كل ما يفكـــر فيـــه، ويتسلى بنوادره وفكاهاته، إلى أن ينصرف. ويرفض أن يأخذ منـــه نقودا، قائلا له :

— الحاج يعطيني من خيره الكثير.

ويشرد في أمر (الحاج)، والده، الذي يهتم بشئونه الماديـــة، ورعايته رعاية كاملة، لكنه يتركه لهواجسه وعذاباته.

القناصة في كل ركن يختبئون، ويحصدون الرءوس. وعصابات المافيا لا ترحم. ورأس الأفعى لم تقطع بعد. ما زالت تطلق فحيحها، تنشر سمومها. ناولته سهى دفتر الرسائل، وطفق يكتب رأيــه.... " إن أردتم صلاحا، فاقطعوا رأس الأفعى. إني أرى أم رأسها. أراهـــا بعيني، واضحة وضوح الشمس، تنسج خيوطها العنكبوتية حـــول

رقابنا جميعا.. إني أراها، أنا الجالس على كرسي أنفـــذ حكمـــا لم يصدره قاض بالسجن مدى الحياة، في هذا البيت الدافئ، وعلـــى هذا المقعد الوثير، لا أفارقه. لكن رأسي تضج بالضجيج والعجيـــج، وعيني لا ترى إلا السواد، إلا الأفعى. اقطعوا الـــرأس. إن اكتفيتـــم بقطع الذيل، فهناك ألف ذيل تنبت لها. لا فائدة يا ســـادة، مـــا لم تقطعوا الرأس، فلا فائدة، وعلى الأرض السلام ".

انهمرت دموع تغسل وجنتيه. تقاطرت منها دموع ســـاقطة على الرسالة، فأضاعت معالم بعض الحروف. أعاد كتابة الرســـالة، دون أن يكل، ومزيد من الدموع تنبجس من عينيه المؤرقتين. ولـمـــا ألفت ما هو فيه من كمد، أخذت منه القلم، وأخذت تكتب ما يمليه عليها. وأرسلت الرسالة إلى الجهة التي حددها.

كل يوم يكتب رسالة، ولا فائدة. كتب إلى كل المنظمـــات والهيئات والصحف والمجلات، وإلى الرؤساء والوزراء والأمنـــاء. لم يكف قلمه عن الكتابة، وسهى تعايش أرقه، مشفقة عليه، تكاشـــفه بأنه يحمّل الأمور فوق طاقتها، وآن له أن يستريح. سخر من نفسه :

ــ أستريح ؟ كيف يا سهى ؟ قد شل جسدي، كما ترين..

ــ لو أنك صحيح الجسم معافى، ما فكرت في كل هذا..

ــ لماذا ؟

ــ لأنك سوف تكون مشغولا بحياتك، وتلهث في ركابها..

— تقصدين.. ؟

— أقصد أنك.. سوف تبحث عن مصالحك..

— كلماتك قاسية يا سهى.

— أرجو ألا تتضايق مني..

— بالعكس، تعجبني صراحتك. لكن، اسمحي لي..

— تفضل.. تكلم..

— ألا قرأت التحقيق ؟..

— بلى، قرأته..

— كتبه صحفي ممرور مثلي، والفارق بيننا، أنــــه صحيــــح معافى، وأنا مقعد..

— إنه يكتب بحكم مهنته. لا تنس أنه جازف بحياته لدخـول منطقة غير آمنة، جريا وراء مجد صحفي.

— قد أفرغت التحقيق من مضمونه.

صمتت، حتى لا تطيل الحديث. أضاف :

— هناك صحفيون يكتبون أشياء تافهة.

— ألا ترى أنك سهرت حتى منتصف الليل ؟

— إني قلق الليلة.

— بل أنت قلق كل ليلة. لا بأس من إعداد عصير فاكهــــة لك.

تركته وحده أسير كرسيه محدقا في الشاشة الصغيرة، تداعب أنامله أزرار الجهاز الصغير، من قناة لأخرى، تتأوه المغنية من فراق الحبيب، ثم طالعه وجه المذيعة ينذره باقتراب موعد نشرة المواجع، وأنباء المجازر. رقبة المذيعة مديدة، يلتف حولها عقد من اللؤلؤ الحر. تقرأ ما هو مسطور أمامها على الورق. تنتفخ عروق الرقبة حسب مخارج الحروف. لأول مرة ينتبه إلى ما تحدثه مخارج الحروف. وحبات اللؤلؤ.. تبدو جماجم بشرية صغيرة. ما هذا أيتها المذيعة ؟ نظر إلى فمها، المصطف داخله أسنان بيضاء، فإذا بها أيضا قد تحولت إلى جماجم بشرية. نادى على سهى، لعلها تنقذه من هذا الرعب المدمر. أسرعت إليه بكوب العصير، فلم يشرب. طلب منها أن تلاحظ معه تلك الجماجم المصطفة في استدارة العقد حول رقبتها، وفي استدارة الأسنان، صفين منتظمين.. ندّ وجهه بحبات عرق غزيرة، غرق جسمه في العرق. أطفأت الجهاز، واستعطفته أن ينام، حتى يستريح. حاول أن ينام.. سأل :

— ما مصير رسائلي ؟

— إني أودعها بالصندوق، كل يوم.. لا شك أنها تصل لأصحابها..

— وأبي، أما من رسالة تأتيني من أبي ؟

— ربما..

— وأمي، أريد أن أكتب إليها رسالة..

— فلنقرأ على روحها الفاتحة..

وقرآ الفاتحة معا..

قال وهو بين اليقظة والمنام :

— أريد أن أكتب رسالة إلى الله..

«الثور»

مجدي محمود جعفر ([1])

عندما دخل السيد المدير كان لم يزل يُعمل مقشته في أرضية الغرفة .. مثيراً ذرات التراب، ليتأفّف، ويكتم طاقتي أنفه بمنديل، ويستدير قائلاً، وهو يصيح بغضب:

ـــ يا ثور .. لماذا لم تنظف الحجرة مبكراً؟!

التقطت أذناه الكلمة فاستطالتا، ضيق ما بين حاجبيه .. دلّى شفته السفلى الغليظة، وكتم بشفته العليا طاقتي أنفه .. وسّع ما بين شدقيه ما استطاع، كاشفاً عن نابين أسودين مدببين طويلين، وأسنان بنية عريضة بينها فراغات ..

كان المدير قد استدار تماماً هرباً من التراب، معطياً ظهره لباب الغرفة، يُلوِّح للمدرسين بيديه، لاعناً القوى العاملة، التي تعيِّن المعاقين والمتخلفين تاركةً الأصحّاء والأذكياء!!

رمى المقشة، ودار حول نفسه، لاح له قفا المدير عريضاً، نظيفاً، غمغم .. ورجع للوراء، وأسند ظهره للحائط، وأغمض عينيه.

([1]) كتاب الجمهورية، يونيو ٢٠٠٠م، ص ١٨٥،١٨٦.

ولما وصل إلى أنف السيد المدير عطر "المدرِّسة" الجميلة معلناً عن وصولها، ألقى المنديل الورقي، وصاح في المدرسين بأن يمضوا إلى الطابور ..

بلّلت ابتسامتها من بعيد جفاف قلبه، وأطلق عينيه لتسبحا في فضاء صدرها الرحيب، وهيّأ يُمناه لتحتضن يُمناها .. وما أن اقتربت بقوامها الممشوق، والتقت عيناها السوداوان بعينيه حتى اضطربت أنفاسه!

قالت بدلال ورقة:

ـــ اصطدمت بصيحتك الغاضبة وأنا أدلف من بوابة المدرسة، فسقط قلبي في رجليَّ!!

أشار إلى الغرفة وقال:

ـــ الثور .. هذا الثور الغبي لم يفرغ من تنظيف الغرفة بعد!

التقطت أذناه الكلمة مرة أخرى فاستطالتا أكثر، وتمددتا أكثر، وأصبحتا بحجم طبق هوائي!

كزَّ على أسنانه .. أرخى شفتيه .. غمغم .. هزّ رأسه الكبير يمنةً ويسرةً، وبينما يد المدير تحتضن يد "المُدرِّسة" الرقيقة الجميلة، أطلق الثور صرخة اهتزّت لها الجدران، وقفز بعنف، وبكل ما أوتي من قوة غرس أسنانه في قفا المدير، وطرَحه أرضاً.

«لقاء»

نجلاء محرم ([1])

في الشارع الضيق المتعرج .. وبين برك صغيرة موحلة .. وفي مهب رائحة الفقر العطنة .. وقفت السيارة السوداء الفارهة في تأفف .. برز منها سائق يرتدي الزي الرمادي ذا الصفين من الأزرار. حين فتح الباب هبت ريح عطرية كدّرت تناغم مفردات الشارع المسكين. انحنى السائق، مادا رأسه إلى داخل السيارة ..

"لن أتأخّر يا سيدي .. وأرجوك لا تفتح النافذة .. أرجوك يا سيدي".

أومأ الصغير بعدم اكتراث وعيناه مشغولتان باستطلاع أشكال البيوت الغريبة .. المائلة والبارزة والمشقوقة .. يخفض رأسه ويثني جذعه حتى يرى سطح أحد البيوت ..

أدهشته الدجاجات الواقفات على بقايا سوره المتداعي .. وصله رغم الزجاج المغلق صوت امرأة تصرخ وتزمجر متنقلة على

([1]) نجلاء محمود محرم: استيقظ، ط١، مطابع أخبار اليوم، القاهرة ١٩٩٧م، ص ص ٢١-٢٥. ونشرت ـ على الإنترنت ـ في «منتدى طيبة الأدبي» في ٢٨/٢/٢٠٠١م.

أوتار صوتها كأمهر العازفين .. مهددة امرأة أخرى تطل من شـــرفة خشبية .. تعاطف مع امرأة الشرفة الطيبة .. وصفق بيديه صائحاً في ظفر لما ألبست ذات الثوب المُهدّد إناءً مليئاً بالقمامة والماء القــذر في رأسها.

عينان سوداوان هيّابتان ترقبانه عـــبر الزجـــاج .. وكفـــان صغيرتان قذرتان تلتصقان بزجاج السيارة اللامع .. ارتعد لمـــا رأى المتلصص الصغير .. الأعين البريئة تتعامل .. تركز وتفصح .. وبعـــد برهة أرسلت أولى إشارات التفاهم .. بسمة بريئة من الوجه القـــذر الملتصق بزجاج السيارة ..

مد طفل السيارة كفّيه .. وضعهما في الجبهة الداخلية مـــن الزجاج ليقابلا الكفين الصغيرتين .. اتسعت البسمتان ..

التصق رأس ذو شعر مصفف بالزجاج .. فنطحَ الزجاجَ رأسٌ ذو شعر مغبر مشعث ..

وانبعث للبسمات صوت ..

امتدت شفتان حمراوان ترسلان قبلة عبر الزجاج .. فتلقتــهما شفتان سمراوان أحدثتا تلوثاً في الزجاج ..

وعلت الضحكات ..

انفتح الزجاج قليلاً ..

ـــ اسمي محمد.

*واسمي أيضاً محمد ..

ازداد نزول زجاج السيارة ..

ـــ هل تلعب يا محمد؟

*ألعب ماذا؟

ـــ عندي حصان!

جرى الصغير إلى باب متكسر، وأحضر عصا طويلة مربوط بها مزق من القماش ..

ـــ هذا حصاني

*رائع .. شعره طويل وجميل!

ركب الحصان .. وقفز .. وقفز .. وهو يُحدث بصوته صهيلاً ودبيباً ..

*هل أركب معك؟

ـــ انزل ..

ونزل.

وركب الحصان .. وتعالت صيحاته وهو يشعر بأنه يخلق الحياة للعبة الصمّاء .. راح وجاء خائضاً في وحل الشارع .. شعر بنفسه فارساً يتحكّم في حصانه .. لا يخاف السقوط .. ولا تقصر رجلاه عن متكأيهما ..

*ماذا عندك أيضاً من اللعب؟

ـــ هل تلعب السيجة؟

*نعم .. علمني ..

ـــ هيا اجمع الحصى ..

اليدان القذرتان تجمعان في نشاط ودربة .. واليدان البضتـــان الناعمتان تقلدان.

جلس في تلقائية على الأرض، فجلس رفيقه .. امتد أصبـــع أسمر مدبب نحو التراب يُخطط ويقسِّم الملعب الصغير ..

***

صرخ السائق "امش يا شوارعي يا متشرد".

قفز المحمّدان ..

ارتفع الكف القاسي وهوى على خد أحدهما ..

بكى وتساقطت دموعه تغسل وجهه الملوث ..

ودلف الآخر إلى محبسه المتحرك ..

وجرت السيارة ..

الكف الصغيرة بداخلها تُلوِّح ..

والوجه البائس في الخارج تغسله الدموع!

«رؤية»

سعيد أحمد عاشور ([1])

كان يمر من هذا الشارع كعادته كل يوم، وفي ذلك اليوم رأى طفلين يلعبان، في يد أحد هما عصا صغيرة، في طرفها خيط قصير ،مربوط فيه قطعة من بالونة صغيرة، وكأنها سنا ر ة صيد.

يقفان بجوار بركة ماء صغيرة ،لا تتجاوز العشر سنتيمترات، في عمق واحد سنتيمتر . أ حد هما يصطاد، والأخر ينظر إليه مترقبا في لهفة ما سيخرجه الأخر .

أقف مند هشا مما يفعلان. إنهما حقا يصطادان شيئا لا نراه نحن الكبار!

يا لروعة هذا العالم!

([1]) نشرت ـ على الإنترنت ـ في «منتدى طيبة الأدبي» في ٢٠٠١/٢/٢٨م.

«ذبابة»

إبراهيم سعفان[1]

الصمت الجاثم في الحجرة يخنقني.. يخنق كلمة نور تسطع في عقلي.. ينسل القلم من يدي مغتاظا ملتجئا حضن المحبرة.. يتهامسان.. لا أبالي.. أشعر بالغثيان.. استفرغه بحرا.. أهدأ قليلا.. أخفو.. يقلقني طنين ذبابة.. ملل.. ملل.. أسد أذني.. لا فائدة.. الذبابة تحوم في الفراغ الكئيب.. الطنين يزداد.. تحط الذبابة على ظهر القلم.. يتململ قرفا.. يبتعد قليلا.. يسترخي ممتعضا.. تهبط عليه ثانية.. يطاردها بعنف.. يحاول وخزها بسنه.. تفلت منه.. تختفي عنا.. يرقبها متحفزا.. المعركة تشتد بيننا.. تحاورنا في الفضاء.. نتابعها بحذر وتحفز.. لا تبالي بنا.. تفاجئ القلم وتقف على سنه.. ننتفض بشراسة لنقضي عليها نهائيا.. تفشل المحاولة.. لعبة مملة مرهقة.. فلأدخلها.. تأهبت لها.. حطت الذبابة على المكتب.. تتراقص.. تغيظني.. ضربتها بصحيفة لم أقراها.. طارت بعيدا مخرجة لسانها.. وقفت على زجاج النافذة.. قذفتها بقطعة

---

(1) نقلا عن موقع «مشهد القصة والرواية في مصر» على الإنترنت.

خشب.. انكسر الزجاج.. اختفت.. حمدت الله.. عادت ثانية أكثر شراسة.. حطت على المحبرة.. تسربت داخلها وراءها.. خرجت الذبابة من المحبرة.. أخرجت رأسي أبحث عنها.. رأيتها على حافة سلة المهملات.. ألقيت بنفسي داخل سلة المهملات.. القلم يرقبني مندهشا.. طارت بعيدا.. تحط على الحائط.. أتسلق الحائط.. تحاورني.. طارت إلى السقف.. تابعتها.. فشلت محاولاتي.. سقطت على المكتب منهكا.. لا بد أن أقضي عليها.. فكرت بسرعة.. أخرجت علبة حلوى من المكتب.. رفعت الغطاء.. حطت الذبابة على المكتب.. تسير ببط.. تتسلق جدار العلبة.. تقفز داخلها.. أتغافل عنها.. تعبث مطمئنة بين الحلوى.. أغلقت العلبة بسرعة.. ألقيتها من الشباك.. أستلقي مسترخيا.. يعانقني القلم.. وينثال على الورقة ضاحكا..

«البوابة»

ياسر علي ([1])

ما أصعب يوم الحشر!

الساعة ركبها شيطان رجيم!

لا تُريد عقاربها الوقحة أن تقترب من الثانية والنصف!

الأجساد المتلاصقة اقتربت رائحتها من درجة العفونة.

عيون العشرات من الرجال المحترمين معلقة بالبوابة السمراء الضخمة التي تُشبه وحش الأساطير القديمة!

الشمس رغم حرارتها الرقيقة تلسع الرؤوس المكتظة بدرجات التصحيح.

المنظر من أعلى سيكون أروع سخرية!

خاصة في الطابق الرابع، حين يشب ابن الخامسة وقد هاله منظر الواقفين أمام البوابة!

([1]) ياسر علي: عندما يموت الحب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الزقازيق ٢٠٠٠م، ص٥٩.

أمه بجانبه، تمضغ متعتها بهؤلاء المعذبين .. وقد تركت شعرها لنسيم يناير يعبث به، ويداها تستقران على رأس الصغير!

لسان حالها يقول:

أرجو .. ألا تكون مثل هؤلاء!»

«في الوقت بدل الضائع»

خلود آل مسعود الدوسري

بين الزغاريد ورقصات الصبايا، تنتقل من مكان إلى مكـــان، للترحيب بالضيوف تارة، ولتوزيع قطع الحلوى تارة أخرى.

تلمح في عينيها حزناً عميقاً رغم محاولتها إخفـــاءه. يكســـو وجهها الشحوب رغم طبقات المكياج، وفجأة تُطفأ الأنوار، لــتزف «لبنى» مع رفيق دربها إلى حياتها الجديدة.

نظرتُ إليها بدهشة:

ما أحلاك يا لبنى!

وتصاعدت أصوات الزغاريد لتملأ المكان، وتتعالى الأكـــف فوق الدفوف، وتتراقص معها الصبايا.

ركضت أمل تجاه أختها، وطبعت على جبينها قبلة حارة.

ساعدتها في السير تجاه البوابة، لتودع المكان علـــى صـــوت الزغاريد وقرع الطبول.

استمرّ الحضور في رقص وغناء حتى انتصف الليـــل، فبـــدأوا بالانسحاب، إلى أن خلت القاعة منهم جميعاً، وبقيت وحيدة.

دلفت صوب طاولة يغطيها قماش أحمر، رمت نفسها علـــى كرسي من خيزران، وأطلقت العنان في أرجاء المكان.

دار في خاطرها شريط الماضي سريعاً، تسمع صـــوت أمـــها وهي تشد بيدها، مرددة: لبنى .. لبنى. عليك بلبنى يا أمل.

وها هي لبنى في مريولها ترفل في الرمال، واليـــــوم في ثـــوب عرسها ترفل في الورود.

عادت تجول ببصرها في المكان، طاولات، مقاعد، ســـــتائر، منصة. ركضت تجاه المقعد المخصص للعرس، انتصبت فيه، نظـــرت حولها .. لا حضور .. لا دفوف .. لا غناء.

الفهرس

«صدر في سلسلة "أصوات مُعاصرة"»

١-العروس الشاردة (شعر)	عبد الله السيد شرف
٢-حياة جديدة (قصص)	حسني سيد لبيب
٣-لماذا يحولون بيني وبينك؟ (شعر)	جميل محمود عبد الرحمن
٤-محمد جبريل وعالمه القصصي	مجموعة مؤلفين
٥-البطل في المسرح الشعري المعاصر (ط٢)	د. حسين علي محمد
٦-قصائد عربية (شعر)	مجموعة شعراء
٧-رباعيات (شعر)	حسين علي محمد
٨-تجليات اللحظة المنفردة (شعر)	نبيه الصعيدي
٩-أوراق من عام الرمادة (شعر)	حسين علي محمد
١٠-قراءات في أدب محمد جبريل	مجموعة مؤلفين
١١-عفواً أنا لا أعطيك الحكمة(قصيدة)	محمد مهران السيد
١٢-أسماء: الثورة والعطاء والتحدي (قصيدة)	صابر عبد الدايم
١٣-سعد حامد وعالمه القصصي	إبراهيم سعفان
١٤-الحرف التائه(شعر)	عبد الله السيد شرف
١٥-الرحيل على جواد النار(شعر) ـ (ط٢)	حسين علي محمد
١٦-أغنية لوجه ملائكي(شعر)	نعمان الحلو
١٧-الرجل الذي قال(مسرحية شعرية)	حسين علي محمد
١٨-وجوه وأحلام (قصص)	أحمد زلط
١٩-القافلة(شعر)	عبد الله السيد شرف
٢٠- الحلم والأسوار(شعر)- (ط٢)	حسين علي محمد
٢١-نحو علم جمال عربي (دراسة)	د.عبد العزيز الدسوقي
٢٢-شعر محمد العلائي: جمعاً ودراسة(ط٢)	د.حسين علي محمد
٢٣-بغير اختياري (شعر)	نعمان الحلو

٢٤-ذاكرة الرأس المقطوع (شعر)	محمد يوسف
٢٥-طقوس الليلة الممتدة (شعر)	محمد سليم الدسوقي
٢٦-بيت الأشباح (مسرحية شعرية)	حسين علي محمد
٢٧-تغريد الطائر الآلي (شعر)	أحمد فضل شبلول
٢٨-كلمات حب في الدفتر (قصص) ط٢	حسني سيد لبيب
٢٩-.. وينتصر الموت (مسرحية شعرية)	محمد سعد بيومي
٣٠-مبادئ العروض	فوزي خـــضر
٣١-غناء الأشياء (شعر)	حسين علي محمد
٣٢-بيني وبين البحر (شعر)	عبد المنعم عواد يوسف
٣٣-الضياع في المدن المزدحمة (شعر)	عبد المنعم عواد يوسف
٣٤-سفير الأدباء: وديع فلسطين	د. حسين علي محمد
٣٥-تنويعات على مقام الدهشة(شعر)	عزت الطيري
٣٦-رحلة آدم (شعر)	محمد سعد بيومي
٣٧-قبل أن تنطفئ النار (مجموعة قصص)	إبراهيم سعفان
٣٨-لن يجف البحر (شعر ـ ط٢)	بدر بدير
٣٩- إضراب عمّال الجبانات (مسرحية)	عبد الله مهدي
٤٠-الفتى مهران ٩٩ (مسرحية شعرية)	حسين علي محمد
٤١- أصداء حائرة (شعر)	محمد سليم الدسوقي
٤٢-الباحث عن النور (مسرحية شعرية، ط٢)	حسين علي محمد
٤٣-ألوان من الحب (شعر)	بدر بدير
٤٤-ملف الأدب السعودي	مجموعة باحثين وشعراء
٤٥-أصداف على شاطئ الكلمة (ذكريات)	محمد جبريل
٤٦-الشعر والطفولة (عن كتاب جماليات النص الشعري للأطفال)	مجموعة مؤلفين
٤٧-الدكتور محمد الربيع: سيرة وتحية	مجموعة مؤلفين

٤٨- مصطفى النجار (ملف نقدي وإبداعي) مجموعة مؤلفين

٤٩-أحمد سويلم (ملف نقدي وإبداعي) مجموعة مؤلفين

٥٠-محمد يوسف (ملف نقدي وإبداعي) مجموعة مؤلفين

٥١-حسين علي محمد (ملف نقدي وإبداعي) مجموعة مؤلفين

٥٢-أصداء رحلة شاب على مشارف الوصول (قصص) مجدي جعفر

٥٣-أحمد فضل شبلول (ملف نقدي وإبداعي) مجموعة مؤلفين

٥٤-سفير الأدباء: وديع فلسطين (ط٢) د. حسين علي محمد

٥٥-محروس طالع القمر (مسرحية) علي الغريب

٥٦--إبراهيم سعفان: مبدعاً وناقداً مجموعة مؤلفين

٥٧-أميرة البدو (رواية) مجدي جعفر

٥٨-سفير الأدباء وديع فلسطين (ط٣) د. حسين علي محمد

٥٩-شعر بدر بدير: دراسة موضوعية وفنية مجموعة مؤلفين

٦٠-بداية وقوفي (شعر) سعيد عاشور

٦١-الأدب العربي الحديث: الرؤية والتشكيل د. حسين علي محمد

٦٢-كتب وقضايا في الأدب الإسلامي د. حسين علي محمد

٦٣-الفتى مهران ٩٩ (مسرحية شعرية) حسين علي محمد

٦٤-فن المقالة (ط٤) مجموعة مؤلفين

٦٥-في الأدب المصري المُعاصر د. حسين علي محمد

٦٦-إطلالة البوح (شعر) مقعد السعدي

٦٧-تراجم مصرية وعربية مختارة د. أحمد زلط

٦٨-القصة القصيرة المُعاصرة: دراسة ومختارات د. صابر عبد الدايم

٦٩-حسني سيد لبيب سيرة وتحية مجموعة مؤلفين

٧٠-قصص قصيرة (١) مجموعة مؤلفين

رقم الإيداع بدار الكتب
١٠٤١٠ / ٢٠٠١
الترقيم الدولي .I.S.B.N
977-324-105-x
دار الإسلام للطباعة والنشر